المحاضرات

obeikandl.com

obeikandl.com

عصر حافظ

للدكتور محمد صبري

حدثني :

حدثني المرحوم حفني ناصف أن الشعر في عصر محمد علي كان من طراز :

يا آل طه عليكم حملتي حسبت إن الضعيف على الأجواد محمول

ولكني قرأت ما كتبه الشيخ حسن العطار ، شيخ الجامع الأزهر المتوفى سنة ١٨٣٤ في وصف الأزبكية نثرا وشعرا قال :

وأما بركة الأزبكية : فهي مسكن الأمراء، وموطن الرؤساء . . ولطالما حضت لي بالمسرة فيها أيام وليالي، هن في سمط الأيام من يتيم اللآلي... الخ

وفيها أقول :

بالأزبكية طابت لي مسرات ولذ لي من بديع الأنس أوقات

حيث المياه بها والفلك سابحة كأنها الزهر تحويها السموات

وقد أدير بها دور مشيدة كأنها لبدور الحسن هالات

مدت عليها الروابي خضر سندسها وغردت في نواحيها حمامات

فى النثر سجع ، وفى النثر والشعر بديع . كلاهما من مظاهر التكلف والتعمل عند الشعوب البـــدائية أو المتأخرة المولعة بالزخارف والأزهار الصناعية وألوانها المموهة .

* * *

محمود صفوت الساعاتى (١٨٢٥ — ١٨٨٠) أول شاعر أو ناظم ترك ديوانا من الشعر ، وقد اشتهر فى سنة ١٨٥٨ فى عهد سعيد بقصيدة بديعية عنى بشرحها المرحوم عبد الله باشا فكرى ، والساعاتى يمثل نشوء الحركة الأدبية فى طور التقليـــد والمحاكاة الساذجة التى لاتحمل طابع الشخصية فى صورة من صورها .

يأتى بعد ذلك عصر البارودى ، فينتظم عصر إسماعيل ، والثورة العرابية ، ويمتد إلى أواخر القرن التاسع عشر . وقد بلغ فيه الشعر نضجه وطاب جنى ، بعد أن كان كالبسر إذا لون ، واستوت الحركة الأدبية على قواعدها فأصدر الشيخ حسين المرصفى — أستاذ البارودى — كتاب "الوسيلة الأدبية" فى سنة ١٨٧٩ . ولأول مرة نشرت الوسيلة القصائد التى جارى بها البارودى القدماء أمثال : أبى نواس ، والشريف الرضى ، وأبى فراس ، والنابغة .

وقد أسس ابراهيم المويلحى مع عارف باشا "جمعية المعارف" لنشر الكتب النافعة . وابراهيم المويلحى هو والد الكاتب محمد المويلحى وأخو النائب عبد السلام المويلحى الذى لقبته التيمس فى سنة ١٨٧٩ بميرابو مصر .

روى جورجى زيدان أن الجمعية كانت تطبع كتبها فى المطبعة التى أنشأها المويلحى باسمه فى سنة ١٨٦٨ وفى مطابع أخرى كالمطبعة الوهبية. وأن لهذه الجمعية شأنا كبيرا فى تاريخ النهضة، لأنها نشرت كثيرا من أمهات الكتب: كتاج العروس، وأسد الغابة، ورسائل بديع الزمان..، وغيرها من كتب التاريخ، والأدب، والفقه. وقد اشترك إبراهيم المويلحى مع عثمان جلال — صاحب العيون اليواقظ — فى إصدار جريدة نزهة الأفكار سنة ١٨٦٩، ويظهر أن إسماعيل تخوف منها فألغيت بعد صدور عددين. وأنشأ بالاشتراك مع إبنه محمد "مصباح الشرق" التى ظهرت حتى موته فى سنة ١٩٠٦ وكان عبده الحامولى مؤسس دولة الغناء والموسيقى فى الشرق (١٨٤٥ — ١٩٠١) صديقا لإبراهيم، وهو الذى قال شوقى فى رثائه:

يسمع الليـــل منه فى الفجر «يا ليـــل» فيصغى مستمهلا فى فراره

كان إذن عصر البارودى عصر تأسيس فى الكتابة والشـــعر والغناء والموسيقى، وإن ظهرت ملامح العبقرية فى الأفراد فى الفنون المختلفة، فإن أولئك الأفراد كانوا قلة، وكانوا غرباء فى بيئتهم.

كان البـارودى شاعرا سليقيا غذى بآداب العرب والفرس والترك، ولم يكن مقلدا للا قدمين ولكن مجاريا. وقد طفر بالشعر طفرة واسعة من غير مقدمات، وبرزت شخصيته منذ الحقبة الأولى، حقبة المجاراة التى سبقت منفاه فى سنة ١٨٨٢

قال يصف الحمائم فى القصيدة التى جارى بها أبا نواس :

نواعم لا يعرفن بؤس معيشة ولا دائرات الدهر كيف تدور

خوارج من أيكٍ ، دواخل غيره زهاهن ظـــل سابغ وغدير

إذا غازلتها الشمس رفت كأنما على صفحتيهـا سندس وحرير

وكان البارودى أول من خلق الشعر السياسى فى مصر ، إذ جاء فى ديوانه "وقال يذم الحكام ويحرض الناس على طلب العـــدل فى الأحكام وذلك فى عهد إسماعيل باشا خديوى مصر" :

فبادروا الأمر قبل الفوت وانتزعوا شكالة الريث فالدنيـا مع العجل

وطالبوا بحقـوق أصبحت غرضا لكل منتزع سهمـا ومختتـل

حتى تعود سمـاء الأمن ضاحيـة ويرفل العدل فى ضافٍ من الحلل

وقد نفى البارودى مع زعماء الثورة فى جزيرة سيلان ، وبقى فيها سبعة عشر عاما (١٨٨٣ — ١٩٠٠) فحركت الطبيعة من جبال ووهاد وأمواه وشجر وأدواح لواعج الوجد والحنين وأنضجت حسه فبلغ آخره ، وكان فى جلالة الشيخوخة كالشمس الغاربة بين مواكب الألوان والأضواء تزداد بهاء كلما مالت الى العتمة .

ومن شعره فى المنفى :

ورب يوم طويل العمر قصَّره ... جرى السوابق والوخادة النشط
ترى به القوم صرعى لاحراك بهم ... كأنهم من عتيق الخمر قد سقطوا
وللفواخت فى أفنانها هزج ... قد ماج من لحنهن السهل والفرط
خضر الجناجن والأطواق تحسبها ... أطفال ملك لها من سندس قمط

وقال :

سل الفلك الدوار إن كان ينطق ... وكيف يحير القول أخرس مطرق؟
نسائله عن شأنه وهو صامت ... ويخبر ما فى نفسه وهو مطبق
فلا سره يبدو ولا نحن نرعوى ... ولا شأنه يدنو ولا نحن نلحق
فضاء يرد العين حسرى ومسرح ... يقص جناح الفكر وهو محلق

وبعد عودته إلى مصر فى سنة ١٩٠٠ مر بقصر الجزيرة لتذكر أيام اسماعيل ، فنظم معتبرا ومذكرا قصيدته الشهيرة :

هل بالحمى عن سرير الملك من يزع
هيهات قد ذهب المتبوع والتبع

وقد مات البارودى فى سنة ١٩٠٤ وترك شعرا كان مرآة شخصيته القوية ، ومرآة عصره ، شعرا فاض به الطبع والإلهام لم يمت ، ولن يموت منه

بيت واحد، لأن المديح و بكاء الطلول والنسيب وكل تقليد مملول لم يعرف إلى ديوانه سبيلا .

سادساً :

لكل شخصية معجزات ، وقد كانت معجزة البارودى أنه خرج بقوة باهرة من طوق التقليد المحكم الذى نشأ فيه، ونقفه كما ينقف الفرخ البيضة . وهذا سر من أسرار الله ، وأستطيع أن أقول : إن البارودى تحرر من القديم أكثر من معظم الشعراء الذين تبعوه فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

كان التحرر من القديم ولا يزال مشكلة المشاكل فى كل بلد وزمن ، خصوصا فى مصر حيث تتعدد المذاهب والمسالك، وتتشابك وتختلط بين الشرق والغرب والقديم والحديث فى الدين واللغة والأدب والكتابة والقضاء . وكل شأن من شئون حياة الفرد أو الجماعة . وقد كان الشعر العباسى بوجه خاص المرجع والمثال الذى يحتذى لكل شاعر ، ولا شك أن العباسيين قد جددوا فى الشعر بقوة أسلوبهم وخيالهم، ولكنهم تغالوا فى المديح و بكاء الطلول والخمريات والنسيب، فمات جزء كبير من شعرهم بعدهم . صحيح أن الشعراء اللاتينيين القدماء كانوا يتغنون بالنبيذ مثلا ولكن خلفاءهم من المحدثين هجروا هذا الباب . كما أن بكاء الطلول

أو المنازل التى خف آهلها ، والعهود التى انقضت قد يجد له فى قلب كل عصر وترا حنانا يشجى ، إذا لمسته عروس الشعر . أليس البحترى هو الذى قال :

تلك المنازل ما تمتع واقفا بزهى الشخوص ولا وغى الأصوات

وهذا يذكرنا بالآية الكريمة : "وكم أهلكنا قبلهم من قرن ، هل تحس منهم من أحد ، أو تسمع لهم ركزا".

وقال شوقى :

وإذا الدار ما بها من أنيس وإذا القوم ما لهم من محس

ولكن "شوقى" لم يوفق كما وفق "البحترى" فى قوة الأداء والتصوير .

ولو أن المديح وما إليه لم يحتل ذلك المكان من ديوان شاعرين كبيرين كالبحترى والمتنبى لما حدث ذلك الفراغ فى أدبنا بين الآداب العالمية .

*
* *

وصف مصطفى صادق الرافعى أثر الشعر العباسى وكتاب الوسيلة الذى نقد ذلك الشعر فى تكوين شعرائنا . قال : "ولد حافظ سنة ١٨٧١ وكان الكتاب الأول الذى هداه إلى سر الأدب العربى وأرهف ذوقه وأحكم طبيعته هو كتاب "الوسيلة الأدبية" . . ففى هذا الكتاب قرأ حافظ خلاصة مختاره محققة من فنون الأدب العربى فى عصوره المختلفة ، ودرس

ذوق البلاغة فى أسمى ما يبلغ بها الذوق ، ووقف على أسرار تراكيبها وعرف منه الطريقة التى نبغ بها البارودى وهى قراءة دواوين فحول الشعراء من العرب ومن بعدهم وحفظه الكثير منها " .

وكتب الأمير شكيب أرسلان : " والظاهر أن الوسيلة الأدبيـــة للمرصفى بما فيها من شعر البارودى قد أنشأت أكثر من شوقى ، وحافظ وأحيت للادب العربى دولة . وقد كان اطلاعنا على شعر محمود سامى البارودى بواسطة الأستاذ الإمام محمد عبده يوم كان منفيا فى بيروت وكنا نلازمه فهو الذى عرفنا الوسيلة الأدبية ، وكنا أنا وأخى " نسيب " رحمه الله ، نصبو من صبانا إلى طريقة الأولين فى الشعر ونؤثر شعر الجاهلية المخضرمين فلما قرأنا شعر محمود سامى سكرنا بأدبه ، ورقصنا على قصبه ، وبعث لنا نشوة روحية لم نعهـــدها فى أنفسنا من قبل أن عرفناه ، وعلمنا أن فى المعاصرين من قدر أن يضارع الأولين . وكنا من قبل محمود سامى نظن الأولين غاية لا تدرك " .

وأذكر أننى فى سنة ١٩٠٩ قبل إصدار الجزء الأول من شعراء العصر نسخت جميع قصائد البارودى من الوسيلة بمنزل المنفلوطى وكانت تعوننى أثناء نسخها هزة الطرب حين يقول :

سواى بتحنـان الأغاريد يطرب وغيرى باللذات يلهـــو ويلعب

ثم اشتريت الوسيلة بعد ذلك فاغنتنى عن كتب البلاغة كلها .

وخلاصة القول . كان الشعر العباسى و بالأخص أسلوب البحترى مدرسة لشعرائنا المعاصرين جميعا .

و إذا كانت قصيدة أبى تمام فى فتح عمورية (السيف أصدق أنباء من الكتب) أكبر قصيدة حماسية فى العصر العباسى ، فإن القصيدة التى قالها مطران فى حرب طرابلس الغرب كانت أكبر قصيدة حماسية فى العصر الحديث ، و بين القصيدتين نسب واحد يؤلف بينهما ، قال مطران :

ما مطلب الفخر من أيد منعمة ... رطيبة ونفوس ليس تحتدم
يأس الجماعات داء إن تملكها ... فهو التحلل يتلوه الردى العمم

وقال :

خلتم طرابلس الغنم المباح لكم ... وشر ما قتل الحداع ما غنموا
هناك يلقى سرايا كم و إن ثقلت ... عرب صلاب خفاف فى الوغى هضم
يغشون بكر الروابى وهى ناهدة ... فتكتسيهم على عرى وتحتشم
ورب واد تواروا فيه ليلتهم ... فاطهم بجناحيه وقد جثموا
عطف العقاب على أفراخها فإذا ... توائبوا قلقت من روعها الأكم

كونوا ملائك لا جوع ولا ظمأ ... وليغلبن نظام الخلق صبركم
أليس منكم أوان الكر كل فتى ... يصول ما شاء فى الدنيا ويحتكم
وكل ذى مرة يمضى برايته ... إلى الجهاد كما اعتادت ويغتنم
يقول للعلم الخفاق فى يده ... فيئ من الأرض ما تختار ياعلم

لانقل هذه القصيدة فى قوتها عن قصيدة أبى تمام التى كان مطران يعجب بها و بقوله :

ولا الخدود وإن أدمين من خجل ... أشهى إلى ناظرى من خدك الترب

كان اسماعيل صبرى يقول "شوقى ينظم ، وحافظ يبنى ، ومطران يبتدع" ولما قال مطران ميميته السابقة طرب لها ، وكان ينشد منها هذا البيت مرارا :

يقول للعلم الخفاق فى يده ... فيئ من الأرض ما تختار ياعلم

وقابل مطران بعد ذلك فقال له : "لقد أسكرتنى . إنك فت الشعراء بسمائة عام" .

على أن "مطران" فى قصائده فى العام الهجرى وفى السياسة والاجتماع لايسمو سمو حافظ ، وقد يسف ، ولكنه إذا غضب أو ثار أو تحمس بلغ القمة ، وكان أجرأ شاعر فى التنديد بالظلم ، ومناوأة كل جبار ، وقد نظم

على إثر صدور القوانين التى تحد من حرية الصحافة فى سنة ١٩٠٩ وما تبعها من سجن الأحرار ومطاردتهم أبياتا منشورة فى ديوانه تحت عنوان (مقاطعة) :

شردوا أخيارها بحـــرا وبرا واقتـــلوا أحرارها حرا فحرا
كسروا الأقلام هل تكسيرهـا يمنع الأيدى أن تنقش صخرا

وبعد انتشار هذه الأبيات توعده رئيس وزارة بالنفى من مصر، فكتب الأبيات التى نشر بعضها فى ديوانه :

أنا لا أخاف ولا أرجى فرمى مؤهبـــة وسرجى

وكان مطران ، رغما من رقة حاله ، لا يفتأ يناهض السلطات كلما رأى فى تصرفاتها ما يمس حرية الرأى والشعور . فقـــد وصلت والدة الخديوى عباس إلى قصرها فى حى الدوبارة فى يوم ١٤ أكتوبر سنة ١٩٢٣ وفى اليوم التالى نشرت الأهرام قصيدة لمطران يحيي فيهـا قدومها . ولم تنشر هذه القصيدة فى ديوانه الذى ظهر فى سنة ١٩٤٩ ومطلعها :

يادار أهلك بالسلامة عادوا لا النفى أنساهم ولا الإبعـاد

وفى ليلة ٢٣ أكتوبر من نفس السنة ١٩٢٣ وصلت إلى الاسكندرية السفينة التى تقل رفات الأمير عبد القادر، وكان موته فى برايز سنة ١٩١٩ فمنع استقبال الرفات فى الميناء أو الاحتفال به . ونقلت الجثة ليلا إلى

القاهرة حيث شيعت الجنازة رسميا فى اليوم التالى . واتفق أن كانت عودة الملك فؤاد إلى القاهرة من مصيفه بالإسكندرية يوم ٢٢ أكتوبر وكانت الزينات لا تزال قائمة إبان تشييع الجنازة وقبلها وبعدها بأيام ، كما جرت العادة . نشرت الأهرام بهذه المناسبة ، فى يوم ٢٢ أكتوبر قصيدة لمطران ، أو دمعة وفاء وجزع على الأمير عبد القادر . روى لى المرحوم "أنطون الجميل" أن السراى عقب نشر القصيدة التى عرض فيها الشاعر بالزينات ولم تؤثر فيه رغبة أو رهبة ، استدعته للسؤال ، وكانت تفكر فى محاكمته . وهذه القصيدة كسابقتها لم تنشر فى ديوانه ، ولعل مطران كان يخشى بطش فاروق وغدره :

أمقدم الفتيان فى طلب العلا ... ساء العلا أن كنت أول عاثر

نجد المحاشر للسرور بها الأسى ... وترى عظائمهن جد صغائر

تعدو البهارج كل زور تحتها ... وتمر بالزينات مر الساخر

ولم ينظم شوقى إلا قصيدة واحدة ترحيبا بالوالدة ورثاء لحفيدها نشرتها له الأهرام يوم ٢٤ أكتوبر .

وليس أدل على علو نفس مطران وميله بغريزته إلى الحرية وتحطيم القيد من قوله ردا على اقتراح كاتب الأهرام فى فبراير سنة ١٩٢٤ تعيينه فى وظيفة حكومية : خلقت عيونا لكل صلة من الصلات الشبيهة

بالأغلال . إن بلبلا يتغنى فى قفص قد يجيد ولكن بصدره ضيقا ، وتحت شدوه حزنا داويا . أما البلبل الذى يتغنى فى الروض ومجاله سعة السماء فيبكى و يضحك و يغضب و يشكو غرامه حين يجد به الغرام .

والواقع أن حكومات الاحتلال كانت لا تسعف الشعراء والكتاب بمعونتها إلا إذا ضمنت أن يخدموا أغراضها التى تتنافى مع أغراض الشعر . وقد عانى حافظ مرارة الضنك والبؤس طويلا على الرغم مما زعمه أحد الأدباء الذين لا خبرة لهم بالحياة أنه لم يعرف البؤس ، وما قال حافظ (سعيت إلى أن كدت انتعل الدما) إلا ترجمة عن حقيقة كابدها وركب هولها . ولا ريب أن جزءا كبيرا من مجهود حافظ ومطران وغيرهما ضاع فى الكفاح فى سبيل العيش فى جو خناق للعبقرية يفت فى عضدهم ، ولولا البيئة التى كان يعانى فيها بعض الشعراء ذلك البؤس المادى والروحانى لما هجر بلبل صداح كعبد الرحمن شكرى دوحة الشعر وانزوى بلبلا أخرسا .

والحمد لله أولا وآخرا فإنه على الرغم من العوائق غرد شوقى ، وصبرى ومطران ، وحافظ وغيرهم ، وجددوا كثيرا من فنون الشعر وأغراضه . وقد كان لمطران من وحى الحس والخيال آيات تتجلى فيها دقة التصوير ولو رزق سلاسة شوقى لنازعه الإمارة .

جاء فى الجزء الثانى من ديوان مطران أنه بينما كان ينظم إذ استوقفت نغمة ألحان حزن تصدح بها موسيقى كانت سائرة فى الطريق ، إذا جنازة تسير خلف طبل و بوق فقال :

مشهد ســـيّر فى طبل وبوق عظـــة جنت فغنت فى الطريق
عظة الموت وما عهـــدى بها أن تزف النعش فى تدليل سوق
لا ، ولا عهدى بهـا خاطبة عن ثغور من نحاس وحلوق
ويح تلك القطـــع الصفراء فى صوتهـا حس جراح وحروق
من ترى علمهـا ما مزجت من وجيف وعويل ونعيق
ألقت الفجعـــة فاستولت على كل سمـــع وأجفّت كل ريق
تلك شكوى عن فؤاد ثاكل صاخب الآلام رنان الخفوق
يا أباً يبكى إبنـــه ملتمسا ذلك التنبيه للحس الصعيق
آه من نار الجوى فهى التى تفجر البركان من قلب رقيق

*
* *

أما صبرى فكان دولة وحده بمقطوعاته التى تجمع بين صفاء الجاهلية وعلو نفسها ، و بين روح الشعر الغنائى فى الغرب . أليس هو القائل فى شجرة :

عار عليك وهـــذا الظل منتشر فتك الهجير بمثلى فى نواحيك
فمن معيرى جناحى طائر غرد كى أقطع العمر شدواً فى أعاليك

والقائل :

سلا الفؤاد الذى شاطرته زمنا حمل الصبابة فاخفق وحدك الآنا

وحسبنا الإشارة إلى قصيدته فى المرأة (تمثال جمال) التى تقع فى عشرين بيتا :

يا لواء الحسن أحزاب الهوى أيقظوا الفتنة فى ظل اللواء
فرقتهم فى الهوى ثاراتهم فاجمعى الأمر وصونى الأبرياء
أنت يَمّ الحسن فيه ازدحمت سفن الآمال يزجيها الرجاء
يقذف الشوق بها فى مائج بين لُجّين عذاب وشقاء
أقبلى نستقبل الدنيا وما ضمنته من معدات الهناء
واخطرى بين الندامى يحلفوا أن روضا راح فى النادى وجاء
لا تخافى شططا من أنفس تعثر الصبوة فيها بالحياء
أنت روحانية لا تدعى أن هذا الشكل من طين وماء

* * *

وقد نشرت هذه القصيدة لأول مرة فى (المجلة المصرية) التى كان يصدرها خليل مطران فى عدد يونيه سنة ١٩٠١ . وهذا ما قاله مطران بهذه المناسبة " كانت الغزليات قبل الان فيها ما يمس الاداب العمومية من ذكر القدود والنهود ورقة الخصر وكثافة الردف ، ولقد كان هذا من

المعام حتى فى قصائد المديح للملوك والأمراء ، وهو مالا ترضاه الأذواق فى هذه الأيام ، وينكره علينا أدباء الغرب ، وقد سئل صاحب السعادة المفضال اسماعيل باشا صبرى نظم أبيات تنقل إلى اللغة الفرنسية ، فجادت قريحته الوقادة بهذه الأبيات التى جاءت على الطريقة الصوفية من حيث سمو الخيال ، ونزاهة الشيمة ، وغرابة الوضع ، ولعلها أحسن ما جمع فيه بين الأسلوبين العربى والغربى فى نظم الشعر .

كان صبرى من الشعراء المقلين ، وكان مثالا ماهوا يفضل نحت دمية على بناء هرم ، وقد يجد فى الوردة الجميلة ما يجد الغير فى حقل من الورد . وكان يحب الإتقان ، وكان الشعراء جميعهم ناشئوهم وكهولهم ، يجرون فى غباره ، ويسترشدون بذوقه الذى "يحس نبوّ الوتر" كما قال حافظ . وقد جنى عليه ناشر ديوانه بنشر المطولات التى كان أغلبها من شعر الشباب ، وكان يريد محوها من آثاره الى الأبد .

كان صبرى يقول : البحترى أشعر القدماء ، وشوقى أشعر المحدثين وكان هذا رأى معظم أدباء العصر ، وكانت فى مصر حركة أدبية واسعة تختار كرائم الشعر وتتذوق ، وكان حديث الشعر فى كل صحيفة وناد . ألتقى بصادق عنبر فى الطريق فيقول : من حسنات شوقى :

همت الفلك واحتواها الماء وحداها بمن تقل الرجاء

وألتقى بحمام أديب فى "بار اللواء" فيقول: لم يقل أحد فى الجماجم المبعثرة فى التراب ما قاله شوقى :

وترى الجماجم فى التراب تشابهت ... بعد العقول تشابه الأصداف

وكلكم يعرف سينية البحترى فى "إيوان كسرى". و يعوف سينية شوقى الأندلسية. ولئن لم يصل شوقى الى مرتبة الوليد فى جودة السبك، والصعود بالقصيدة كلها فى نفس واحد فى جو من أجواء ذلك العالم العلوى ، عالم الشجا والنغم والخيال ، فإن له أبياتا فى هذه القصيدة توازى أرقى أبيات "الإيوان" كقوله فى خروج العرب من الأندلس :

خرج القوم فى كآبة صم ... عن حفاظ كوكب الدفن خرس

ركبوا بالبحار نعشا وكانت ... تحت آبائهم هى العرش أمس

وقوله فى ضآلة الإنسان أمام الكون والمصير المحتوم :

يافؤادى لكل أمر قرار ... فيه يبدو وينجلى بعد لبس

عقلت لجة الأمور عقولا ... كانت الحوت طول سبح وغس

غرقت حيث لا يصاح بطاف ... أو غريق ، ولا يصاح لحس

ومحسنات شوقى لا يحصيها عد . تغنى بالنيل ، وتغنى بمصر ، وتاريخ مصر ، وآثار مصر ، وهو القائل فى قصيدة أنس الوجود :

وأنا المحتفى بتاريخ مصر ... من يصن مجد قومه صان عرضا

وتغنى بالثورة :

والشعب إن رام الحياة كبيرة ... خاض الغمار دما الى آماله

* * *

وللحرية الحمراء باب ... بكل يد مضرجة بدق

وتغنى بالنخيل بين المنتزه وأبي قير :

و باسقة من بنات الرمال ... نمت وربت فى ظلال الكثب

تطول وتقصر خلف الكثيب ... إذا الريح جاء به أو ذهب

تخال إذا اتقدت فى الضحى ... وجرّ الأصيل عليها اللهب

وطاف عليها شعاع النهار ... من الصحو أو من حواشى السحب

وصيفة فرعون فى ساحة ... من القصر واقفة ترتقب

قد اعتصبت بفصوص العقيق ... مفصلة بنثور الذهب

وناطت قلائد مرجانها ... على الصدر واتشحت بالقصب

وشدت على ساقها مئزرا ... تعقّد من رأسها للذنب

* * *

أهذا هو النخل ملك الرياض ... أمير الحقول عروس العزب

طعام الفقير وحلوى الغنى ... وزاد المسافر والمغترب

فيا نخلة الرمل لم تبخلى ... ولا قصرت نخلات الترب

أليس حراما خلو القصا ... ئد من وصفكن وعطل الكتب
وأنتن فى الهاجرات الظلال ... كأن أعاليكن العبب
وأنتن فى البيد شاة المعيل ... جناها بجانب أخرى حلب
وأنتن فى عرصات القصور ... حسان الدمى الزائنات الرحب
جناكن كالكرم شتى المذاق ... وكالشهد فى كل لون يحب

لم أر لجاهلى أو إسلامى شعرا فى النخيل جمع بين أفانين التصوير كما جمعها شعر شوقى وقد أطنب كتابنا فى قول شوقى :

وناطت قلائد مرجانها ... على الصدر واتشحت بالقصب
وشدت على ساقها مئزرا ... تعقد من رأسها للذنب

ولكن أولئك الكتاب أغفلوا بيتا من التصوير الذى تعجز عنه ريشة المصور :

تطول وتقصر خلف الكثيب ... اذا الريح جاء به أو ذهب

إن حركة النخيل وراء الكثبان تطول وتقصر ، هذه الحركة التى تناغى الخيال وتلاعبه ، تضارع فى الحسن والحلاوة ، حركة الأغصان فى بيتى ابن الرومى اللذين قالهما فى بعض أسفاره يذكر بغداد :

بلد صحبت به الشبيبة والصبا ... ولبست فيه العيش وهو جديد
فاذا تمثل فى الضمير رأيته ... وعليه أغصان الشباب تميد

ولا شك أن مجرد تصوير حركة أغصان الشباب ، والشباب والأغصان مختلطان ، من التصوير الواقعى البسيط الذى لا تشبيه فيه .

على أن هناك مشكلة عويصة عرض لها شوقى ، وهى مشكلة اللغة الفصحى والعامية ، وضرورة استعمال الثانية فى بعض الحالات خصوصا إذا كانت العامية ترجع إلى أصل فصيح مثال ذلك : قال شوقى عن النخلة إنها عروس العزب ، والعزبة ليست عربية ، ولكن مجرد ذكرها يقرب الى أذهاننا وقلوبنا صورا محببة من ريف مصر وألوانه التى ألفناها . جاء فى كتب اللغة عزب ، بعد وغاب ، والمصدر العزبة بضم العين . والعازب الكلا البعيد ، فالعزبة الأرض البعيدة فى الريف . ولعل الأبعدية أيضا من الأبعد ضد الأقرب . وقد أراد البارودى أن يصف امرأة بخفة الدم فقال " خفيفة مجرى الروح " مع أن خفيف الظل ، أو خفيف الروح فى الشعر نسأب ، و (خفيف الدم) فى النثر المرسحى أوقع لأنها مصرية قح .

نقول : إن الصورة الواقعية البسيطة أفعل فى النفوس من الصورة المركبة التى تحمل طلاء البديع ، وفيها لمسة المصور الحاذق ، كما فى قول البارودى :

أخلق الشيب جدتى وكسانى ... خلعة منه رثة الجلباب

ولوى شعر حاجبى على عينى حتى أظل كالهداب

وقد انفرد شوقى ومطران باستقصاء كل الصور الحسية والمعنوية فى تصويرهما . وصف شوقى المنار، فقال من قصيدة لم تنشر فى ديوانه :

سما يناغى الشهبا هل مسها فانتهبا
كالديدبان ألزموه فى البحار مرقبا
شيّع منه مركبا وقام يلقى مركبا
بشر بالدار وبال أهل السراة الغيبا
وخط بالنور على لوح الظلام مرحبا
كالبارق الملمح لم يول الا عقبا
يرمى الى الظلام طو فا حائرا ، مذبذبا
كنمر أدار عينا فى الدجى وقلّبا
وكالسراج فى يد الريح أضاء ، وخبا
ولمحة من خاطر ما جاء حتى ذهبا
مجتنب العالم فى عزلته ، مجتنبا
إلا شراعا ضل أو فلكا يقاسى العطبا

حدثنى أديب أنه فى أثناء مواسم الاحتفال بتأبين شوقى واحتشاد الوفود العربية المختلفة للاشتراك فيها مع أدباء مصر ومثقفيها من كل الطبقات

استرعى ذلك المهرجان "برنارد شو" الذى تصادف وجوده فى مصر فى ذلك الوقت فيسأل بعض المصريين الذين وفدوا لتحيته فى نزل الكونتنتال ، أن يترجموا له ما نظمه فى المنار، والنخيل فاستطرب ،ولوح بيديه إعجابا وقال : إن مثل هذا الشاعر لجدير بالتكريم حقا فلست أعرف بين الشعراء من له قدرة هذا الشاعر فى اختراع التشبيهات المطردة المتنوعة للمنظر الواحد مع قوة الأداء على الرغم مما فى شعركم من قيود .

والواقع أن عصر حافظ كان غنيا بشعره عبقريا ، وأن بعض كنوزه لا تزال مبعثرة ، قرأت " لولى الدين " يكن أبياتا أنشدتها فتاة عمياء فى حفلة خيرية للبنات الكفيفات فى مصر :

رحم الله أعينا لم تشاهد ... منذ كانت إلا ليالى سودا

تتمنى لو فتحت فتملت ... من جمال الوجود هذا الشهودا

تتناجى حمائم الروض صبحا ... لا تراها ، وتسمع التغريدا

ويكون الربيع منا قريبا ... فتظن الربيع منا بعيدا

حين ترنو إلى الورود عيون ... ليت شعرى كم تستطيب الورودا

أبوى اللذين أوجدتمانى ... أتريدان شقوتى ، لن تريدا

عشتما فى ظلال شمل جميع ... أنا وحدى وجدت شملى بديدا

وقد ذكرتنى هذه القطعة بأبيات الشاعر الإنجليزى "ملتون" الذى كف بصره فى كهولته :

"أنا ظلام وسط نور

"أتعرض كل يوم للخديعة والغش والعبث والازدراء فى البيت وفى الطريق

"أنا كالمغفل أصبح زمامى بيد غيرى لا بيدى

"يخيل إلى أن الحياة لا تكاد تدب فى جسمى ، وأن أكثرى ميت

"حلوكة لن تزول ومحاق كامل لن يفضى إلى نهار

"أيها الظلام الحالك . الحالك . الحالك فى ضوء الظهر المتوهج . . .

ليست صيحة ملتون بأبلغ من صيحة "ولى الدين" فى طلب الرحمة لتلك الأعين التى لم تشاهد منذ كانت إلا ليالى سودا .

وهذا الكاظمى حسبه مجدا قول :

وإبائى يرى من الضيم ان أحـ ـمل فى الدهر منـــة للغمام

والكاظمى هو الشاعر الوحيد فى عصرنا الذى كانت له سليقة الأعراب فى ارتجال الشعر ، اذ كر أنه نظم أمامى مائة وأربعين بيتا . وكان كلما نظم بيتا جديدا أو بيتين أو ثلاثة تغنى بالأبيات التى قالها من قبل ، فعل المستجم ، ثم انطلق ينظم ويطرب تطريبا بصوته المشجى ، ثم يقبل

ثم يدير فى زهو وخيلاء ، متنقلا من فن إلى فن كالبلبل الهائم يردف تغريدا بتغريد . وأذكر أنى قاطعته وهو يقول : (ونسيبى بساكن الرمل ....) فقلت أرمل الاسكندرية ، فضحك .

*
* *

كان عصر البارودى عصر فرد ، عصر البارودى وحده ، وكان عصر حافظ عصر جماعة . وكان حافظ فى المرتبة الشعرية واحدا من أربعة كانوا فى الرعيل الأول . ولكنه كان ثانى اثنين بايعتهما الجماهير بزعامة الشعر : شوقى وحافظ . وكانت الموازنة بينهما شغل الأدباء الشاغل كان المنفلوطى يقول إن حافظاً يقرن اسمه باسم شوقى ليضمن لنفسه المحل الثانى . على أن المنفلوطى نفسه كتب مقالا بغير توقيع فى جريدة عكاظ تحت عنوان "شاعر وناثر" وازى نفسه فيه بشوقى لينتزع صولجان الكتابة من صاحب "عيسى بن هشام" .

والواقع أن حافظاً بشعره وشخصيته كان أقرب إلى الشعب من أى شاعر آخر . قال لى مرة إن المتنبى شاعر يجب أن تقف أمامه زنهار وتضرب سلام ، والبحترى شاعر يأخذك بالحضن ، وقد كان شوقى وصبرى ومطران أشبه بالأرستوقراطية الشعرية قليلة الاتصال بالشعب متباعدة عنه كالمتنبى . أما حافظ فكان عشيرا أو عشرى كما يقول أولاد البلد

أبدا ضاحك السن لا يتجهم . جوادا متلافا . كان أهلا وكان سهلا . وكانت مصريته العريقة تبدو فى ظرفه ، ونبرات صوته العريض ، فى حز الجبين وفى ماء ذلك الوجه الأسمر النضير الريان ، الذى كان يتلألأ البشر فى أرجائه كما يتلألأ فى بحبوحة النيل الطامى .

كان حافظ إذا تحدث يدمج فى مجلسه ، وكان مجلسه يدمج فيه ، وكان إذا خطب يدمج فى الشعب ، وكان الشعب يدمج فيه ، كان أقرب الينا من غيره كأنما كانت تربطه بكل منا صلة رحم أو قرابة . فإذا قال ياشباب النيل ، أو يارجال الغد كان صوته المحبب ينتظم أنغمتنا قبل آذاننا .

تكلم حافظ بلغة الشعب ، لغة الرجولة والوفاء والإخلاص ، وكان يوزنا بشعره فى كل المواقف : فى مصر والسودان .

رويدك حتى يخفق العلمان وتنظر مايجرى به الفتيان

وفى الامبراطورة أوجينى :

كنت بالأمس ضيفة عند ملك فانزلى اليوم ضيفة فى خان

واعذرينا على القصور كلانا غيرته طوارق الحدثان

فى دنشواى :

فى دنشواى وأنت عنا غائب　　لعب القضاء بنا وعز المهرب

خليتهم والقاسطون بمرصد　　وسياطهم وحبالهم تتأهب

والمستشار مكاثر برجاله　　ومعاجز ومناجز ومحزب

طاحوا بأربعة فأردوا خامسا

هو خير مايرجو العميد ويطلب

حب يحاول غرسه فى أنفس　　يجنى بغرسها الثناء الطيب

فاجعل شعارك رحمة ومودة　　إن القلوب مع المودة تكسب

هذا شعر ، أيها السادة ، وبيان كبيان الجاهلية فى طلاوته وتحدره وهو مايسميه بعض أدبائنا بالضجيج اللفظى . مثلهم فى ذلك مثل الذين لايرون فى التماثيل التى صاغتها كف صناع ، إلا جمادا أو حجارة ، ورحم الله البحترى الذى يقول :

على نحت القوافى من مقاطعها

وما على لهم أن تفهم البقر

وكان بعض كتاب العصر ، وعلى رأسهم المنفلوطى ، يقولون إن شعر حافظ مجرد صناعة لفظية وقد صدرت (النظرات) فى مارس سنة ١٩١٠ ، وكانت لها ضجة لأن المنفلوطى تعرض للحكم على الشعراء

والكتاب ، بخار فى أحكامه . امتدح شوقى (١) ، ثم البارودى (٢) ثم قال عن صبرى (٣) ، كأن شعره البرد المحبر والجوهر المتخير . ولو كان له فى الأسلوب العربى مثـــل نصيب سابقيه مافضله أحد ، ثم حافظ (٤) ثم البكرى (٥) ثم شكيب (٦) ثم الكاظمى (٧) ثم مطران بعد أولئك جميعا قال عنه ، بياض معانيه فى سواد عجمته كالماس فى الفحم . أكثر الناس نفقة استخراجه فأغفلوه . أما حافظ فقال عنه : حظه أكبر من قدره ، وحياته أشعر من شعره فهو صائغ ماهر ، لاغنى قادر ، يجمع الذهب قطعا صماء ، ويعرضه صورا حسناء ، إلا أنه يتعمل الشعر تعملا يكاد يخفى أثره بين حلاوة اللفظ وطلاوة الأسلوب ، لذلك لاتجد له معنى جديدا .

ولعمرى أين المعنى الجديد فى قول من قال :

ألا كل شىء ماخلا الله باطل وكل نعيم لامحالة زائل

وقول الآخر :

والناس من يلق خيرا قائلون له مايشتهى ولأم المخطىء الهبل

وهذا معنى متداول ، والعامة تقول : "البقرة لما تقع تكثر سكاكينها"

وقد رثى حافظ (قاسم أمين) فقال فى ختام قصيدته :

قل للإمام إذا التقيت به فى الجنتين بأكرم الـــنزل

لله آثار لكم خلدت صاح الزوال بهـا فلم تزل

لله أيام لكم درجت طالت عوارفها ولم تطل
نعم الظلال لو أنها بقيت أو أن ظلا غير منتقل

ليس فى هذه الأبيات معنى جديد ، ولكن فيها سحر البيان والنغم ، وما أحلى قول حافظ :

نعم الظلال لو أنها بقيت لو أن ظلا غير منتقـــل

وهذا كقول البحترى :

ويأمرنى بالصبر من ليس وجده كوجدى ولا إعلان حالى كحاله
فإن أفقد العيش الذى فات باللوى فقدماً فقدت الظل عند انتقاله

وما أحلى قول حافظ :

لله آثار لكم خلدت صاح الزوال بها فلم تزل

صاح الزوال من فصيح العبارة ، وهى كقول امرئ القيس (دع عنك نهبا صيح فى حجراته) وصيغة المبنى للمجهول فى صيح يخرج منها شعاع لماح كضوء النهار . ولشوقى مبنى آخر للمجهول فيه عذوبة :

الذين ميـــل بهم فى اسفارهم بعـــدوا

ولقد عاصرت كتاب عصر حافظ وشعراءه ، وكنت أقرض الشعر وأعرضه عليهم فوجدت مرض "المعنى الجديد" متفشيا عند طائفة منهم

كان بعضهم يجرى وراء المعنى، و يعصر القريحة فى استنباطه كأنه مطالب بحل عملية جبر أو حساب ، و بطبيعة الحال كان البيت الذى يظفرون به تبدو عليه سيما الضعف والوهن ، كأنه نضو أسفار .

والعجيب أن كاتبا كالمويلحى ، وهو الوزان الحصيف ، قد أصابته عدوى ذلك المرض فقال إن إحدى مقالاته فى نقد ديوان شوقى « ومما نعده من محاسنه ونراه من المعانى المبتكرة :

سعت لك صورتى وأتاك شخصى وسار الظل نحوك والجهات

لأن الروح عندك وهى أصل وحيث الأصل تسعى الملحقات

وهبها صورة من غير روح أليس من القبول لها حياة

وهذا شعر سقيم أقل ما يقال فيه أنه ليس من مستوى شوقى .

ولا مراء أنه كان لاسماعيل صبرى و بعض الأدباء والنقاد فضل كبير فى تقويم الذوق، وتصحيح اتجاهات الشعر، فكان صبرى يندد بالإسراف فى استعمال كأن ، والتشبيه بالبدر ، وكل المبالغات والمحسنات البديعية التى تحرر الشعر من أكثرها الآن . أذكر أن بعض الأدباء كانوا يطربون لقول المكاظمى : (لم كوكبا ، وابد غصنا ، والتفت ريما) و يعدونه من بليغ الشعر .

ولا يخالجنا شك فى أن جرثومة هذا المرض كانت موجودة منذ العصر العباسى ، فى شعر المعانى والبديع ، الذى أفسد على أبى تمام ، وابن المعتز معظم شعرهما . ولم يسلم منه البحترى ، قال يصف الربيع :

أتالك الربيع الطلق يختال ضاحكا من الحسن حتى كاد أن يتكلما

وقال أيضا :

ألم تر تطليس الربيع المبكر وما حاك من وشى الرياض المنشر
وردنا على بطياس وهى كأنها سبائب عصب أو زرابىّ عبقر
كأن سقوط القطر فيها إذا انثنى إليها سقوط اللؤلؤ المتحدر
وفى أرجوانىّ من النور أحمر يشاب بإفرند من الروض أخضر

ليس فى هذا الشعر أى إحساس عميق بالطبيعة ، وإن كنا نعشق موسيقاه التى ضاعت بين معانيه وبهرج ألوانه .

نحن لا ندعى أن حافظا منزه عن كل عيب ، ولكننا نؤكد أنه لم يتعمل الشعر تعملا إلا فى أحوال نادرة كما حدث فى ميمية رعاية الأطفال التى وصف فيها القطار ، فقال : إنه مر كاللح ، أو كشرخ الشباب ، أو كالظليم أو كالرقطاء الخ ...

وقد يبدو التكلف بصفة عامة فى المديح والنسيب وشعر المناسبات . ولكن من الخطأ القول أن شعر المديح أو النسيب التقليدى لا يصدر كله

عن وجدان صادق ، وأن التعمل بيّن فى كل أجزائه ونواحيه ، فإن للشراء قلوبا يعمرها الحب والصداقة والعواطف البشرية التى تحركها مواقف الوداع والتلاقى ، ونضوب المودات وازدهارها . أليس البحترى ، شاعر النسيب هو القائل :

ولقد تأملت الفراق فلم أجد يوم الفراق على امرئ بطويل
قَصرتْ مسافته على مستزود منه لدهر صبابة وعويل

و"صبرى" هو القائل وقد جرى على نفس النهج التقليدى :

هل عند ذاك السرب أنا بعده فى الحى من آماقنا نتدفق

ومدائح حافظ ومراثيه فى الإمام من الشعر الباقى . وقد كان ولى الدين يكن فى النسيب الذى بدأ به حافظ قصيدته :

كم تحت أذيال الظلام متيم دامى الفؤاد وليله لا يعلم

وقد أنصف مطران الشعراء المعاصرين فى مقالاته التى نشرها فى (المجلة المصرية) وهى جديرة أن تكتب بماء الذهب . قال عن حافظ : "يقول الشعر فى كل مكان يتفق له أن يخلو بنفسه ، ومن عاداته دخول حديقة الأزبكية بعد الظهر طالبا لتلك الخلوة ، ولا يختلط عليه الفكر خلال الضجيج المحيط به . يتعب فى قرض قريضه تعب النحات الماهر فى استخراج مثال جميل من حجره . يؤثر الجزالة على الرقة وله فيها آيات . يطرق

الموضوع فى الغالب من جوهره ، وربما نظم أكثر الأبيات قبل المطلع شأن الصانع القدير الذى يبدأ بأصعب ما بين يديه آمناً أن تهن عزيمته دون الإجادة بعد ذلك ، عالما أن الكلام لا بد أن يأتيه فى أى مقام طيعا ولو بعد حين . حاضر المحفوظ من أفصح أساليب العرب ينسج على منوالها ويتخير نفائس مفرداتها وأعلاق حلاها . إذا صب البيت فى قالب من العروض أعاده نغما على سمعه مستشيرا بذلك ذوقه عن طريق أذنه . وطالما صدقته الأذن بنصيحتها ، أما تغنيه فبدوى أخذه عن الشيخ عبد المحسن الكاظمى . وطريقته أن ينطق بالكلمات ملحنة تلحينا ساذجا . من إطالة فى الحروف المعتلة ، ورجفة فى القرار ، كرة أربعة أنفاس وتقتضب . له غرام باللفظ لا يقل عن الغرام بالمعنى . وفى أقصى ضميره يؤثر البيت المجاد لفظا على المجاد معنى ، فإذا فاته الابتكار حينا فى التصوير لم يفته الابتكار فى التصوير ، أولع بالاجتماعيات ، فقال فيها وأجاد ما شاء . كبير الآمال عاثر الجد نجد على أكثر منظومه أثرا من ألم النفس ، أو مسحة من الشكوى ، وتحمل بعض عروقه من بثه ما يلذع لذع النار المكامنة فى غير متقد ، فهو على الجملة أحد الثلاثة الذين هم نجوم الأدب العربى فى مصر لهذا العصر ، ولكل من تلك النجوم منزلته وإضاءته وأثره الخالد ، أما شعره فشعر البيان ، وإن من البيان لسحرا " .

وقد نشرت مجلة الأقلام فى سنة ١٩٠٦ رأى حافظ فى شعراء عصره: قال فى اسماعيل صبرى " يقول الشعر لنفسه لا للناس "وفى شوقى " أرق الشعراء طبعا وأسماهم خيالا "وفى مطران "أسرعهم بديهة وأقدرهم ابتكارا".

*
* *

وقد أحس المنفلوطى أنه اشتط فى أحكامه، فعدلها فى مختاراته التى صدرت فى سنة ١٩١٢ أى بعد صدور النظرات بعامين، ولكنه وجد الفرصة موانية لإنصاف حافظ قبل ذلك، فكتب فى المؤيد فى ١١ أبريل سنة ١٩١٠، أى بعد النظرات بشهر واحد، مقالا عنوانه (إلى حافظ ابراهيم) وذلك بمناسبة قصيدته فى رعاية الأطفال التى نشرتها المؤيد فى اليوم السابق ١٠ أبريل :

شبحا أرى أم ذاك طيف خيال لا بل فتاة بالعـــراء حيالى

وقد كان لذلك المقال صدى فى الأوساط الأدبية. نجتزئ بنشر نبذة طويلة منه، لأنه يكشف عن الضعف الذى يعتور أحيانا أسلوب المنفلوطى وآراءه التى كان يتعصب لها فريق من أدباء ذلك العصر، قال :

" لو أن قصيدتك فى رعاية الأطفال تقدمت كلمتى عنك فى كتاب النظرات بيوم واحد لكان لى معك شأن غير الذى رأيت .

" أحب الشعر غزلا ونسيبا واستعطافا واعتذارا وتمثيلا وتصويرا فلا أحب سياسة أو حماسة ومدحا وذما وأخذاً ورداً ، لذلك كان إعجابى بموقفك أيها الشاعر الجليل بين الظل والماء ، والكأس والوتر ، والشفق الأحمر والليل الأسود ، والفجر الأبيض ، أكثر من موقفك فى منابر السياسة بين جماعة السياسيين " .

" أعجبتنى قصيدتك عامة لأنها أبكتنى ، وأعجبنى منها خاصة :

فعلمت ما تخفى الفتاة وإنما ... يخشو على أمثالها أمثالى

كما أعجبنى قولك بعد ذلك :

ووقفت أنظرها كأنى عابد ... فى هيكل يرنو إلى تمثال

ولم أر فى الشعراء من أحسن تمثيل الموقفين المختلفين فى بيت واحد مثلك فى قولك :

أمشى وأحمل بائسين فطارق ... باب الحياة ومؤذن بزوال

أبكيهما وكأنما أنا ثالث ... لهما من الإشفاق والإعوال

*
* *

كما لم أر بينهم من شبه خفقان قلب المريض بمثل ما شبهته فى قولك :

وجنا الطبيب يجس نبضا خافتا ... ويرود مكمن دائها القتّال

لم يدر حين دنا ليبلو قلبها ... دقات قلب أم دبيب نمال

« ولقـــد قرأت حِكَم المعرى ، وآداب أبى الطيّب ، فلم أرهما بذّاك فى حكمتك التى أودعتها قولك » :

خير الصنائع فى الأنام صنيعة تنبـــو بحاملها عن الإذلال
وإذا النوال أتى ولم يهـرق له ماء الوجوه فذاك خير نوال

« وفى اعتقادى أن ابن المعتز لو سمع قولك » :

فكأن ناحل جسمه فى ثوبه خلف الخروق يطل من غربال

« لاغتبط بك كثيرا ، ولاعتقد أن جمال التشابه لا يموت بموته » .

وكان الختام : « نهنيتا ياحافظ بعهدك الجديد فى شعرك الجديد . . . وكن ياحافظ فى شعرك كله شاعر الأفئـــدة والقلوب ، لا شاعر السياسة والأحزاب » انتهى .

هذه القصيدة من أروع قصائد حافظ وقد تكون أروعها ، وتمتاز بقوة الحبك وحسن السرد والسياق الروائى فى أسلوب سهل سلس ، ودقة تصوير المواقف المختلفة ، ولذلك فإن التشبيهات لا يبدو بهرها إلا منظومة فى سلك القصيدة ، وجوّها . وبيت حافظ :

وكأن ناحل جسمه فى ثوبه خلف الخروق يطل من غربال

إذا نظرنا إليه منفردا لم نجد فيـــه من جمـال التشبيه ما يرقص له ابن المعتز . فظاهر البيت أن الجسم الناحل يبـدو فى ثوبه المخروق وكأنه يطل من غربال . وظاهر أن حافظا أراد أن يقول (وكأن عارى جسمه فى ثوبه) ليستقيم التشبيه ويبدو جماله فى إطاره، ولكن كلمة عارى نافرة فاضطر إلى استعمال كلمة ناحل، وهى غير ملتئمة فى البيت . والبيت السابق يبين المعنى المقصود :

لم يدر ناظـره أعريانا يرى ... أم كاسيا فى تلكم الأسمـال

وكأن ناحل جسمه فى ثوبه ... خلف الخروق يطل من غربال

ولعـــل حافظا أراد أن يجمع بين النحول والعرى فاختلطت الصورة وتشوشت . وقد أسرف الشعراء قديما فى وصف الجسم الناحل ، وشبهه حافظ فى نفس القصيدة بعود خلال . والجديد هنا هـــو تصوير الحقيقة المجردة على مثال شعراء الجاهلية والروائيين الغربيين فإن الصورة الواقعية أو صورة البؤس المـادية أفعل فى النفوس من أية صورة أخرى ، قال الإمام على : " لو تمثل الفقر رجلا لقتلته " . وإنى لأذكر أنى خرجت ذات يوم أتريض ، وكان صباحا ، فرأيت طلبة واقفين بباب المدرسة، فانت منى التفاتة إلى أحدهم فرأيت ملابسه بالية وأصبعه يطل من حذائه . فأحزننى ذلك المنظر الذى يقطع نياط القلب ، منظر العرى والبؤس .

فقصيدة حافظ فى رعاية الأطفال قصيدة إنسانية عالية ، تزخر بحقائق الحياة وصورها ، وهى من هذه الناحية تجديد وابتكار .

وقد نظم حافظ على أثر رحلته فى إيطاليا وركوبه البحر لأول مرة سنة ١٩٢٣ قصيدة طويلة ليست سوى مقالة منظومة باستثناء بيتين فذّين من خير ما جادت به قريحة الشعراء فى ضآلة الكون :

أيها البحر لا يغرنك حول ... واتساع وأنت خلق كبير

إنما أنت ذرة قد حوتها ... ذرة فى فضاء ربى تدور

هذان البيتان من الشعر الضخم الذى لا يطاوله شعر .

ولنا إذ نشكر وزارة التربية على عنايتها بطبع الديوان الذى ظهر فى جزأين سنة ١٩٣٧ ، وإذ نشكر الأدباء الذين ضبطوه وصححوه وشرحوه على عنايتهم بتاريخ القصائد وذكر مناسباتها ، وهو ما لا نجده فى ديوان شوقى أو مطران ، نعتب عليهم لأنهم لم يعنوا العناية التامة بالبحث عن كل شعر حافظ ، فقد نشروا له مثلا فى صفحة ١٠٥ من الجزء الثانى أحدعشر بيتا فقط من قصيدة فى شؤون مصر السياسة (قد مر عام ياسعاد وعام) نظمها فى سنة ١٩٣٢ وكانت تبلغ مائتى بيت ، قال المازنى إنها من أجود وأرصن شعره .

وأذكر أن حافظا إذ كان فى دار الكتب أسمعنى قصيدة طويلة لم يعلق بذهنى منها إلا قوله (. . . الآحاد والجمعا) وهى ليست فى ديوانه .

كما أننى وجدت فى أوراق المرحـــوم محمد رفعت ابن أخت حافظ حافظية لم تنشر فى ديوانه قالها فى رثاء الاثنى عشر طالبا الذين أصـــيبوا فى حادث القطار فى إيطاليا :

قطف الموت بواكير النهى ... بفنى أجمـل طاقات الزهر
وعدا الموت على أقمارنا ... فتهاووا قمرا بعـد قمـــر
فى سبيل النيل والعـــلم وفى ... ذمة الله قضى الاثنـا عشر
أى بدور الشرق ماذا نابكم ... فى مسار الغرب من صرف الغِيَر
نبأ قطع أوصال المنى ... وأصمّ السمع منـا والبصر
كم بمصر زفـرة من حرها ... كنس الأعفر والطير وكر
كم أب أســـوان دام قلبه ... مستطير اللب مفقور الظهر
ساهم الوجه لمـا حل به ... سادر النظرة من وقع الخـبر
كم بهـا والدة والهـــة ... عضها الثكل بنـاب فعقر
ذات نوح تحت أذيال الدجى ... علم الأشجـان سكان الشجر
تسـأل الأطيار عن مؤنسها ... كلمـا صفق طير واستحر

تسأل الأنجم عن واحدها كلما غور نجم أو ظهر

تهب العمر لمن ينبئها أنه أفلت من كف القدر

* * *

أى شباب النيل لا تقعد بكم عن خطير المجد أخطار السفر

إن من يعشق أسباب العلى يطرح الإحجام عنه والحذر

فاطلبوا العلم ولو جشمكم فوق ما تحمل أطواق البشر

نحن فى عهد جهاد قائم بين موت وحياة لم تقر

هذا شعر تبدو فيه ملامح شخصية حافظ كما نحبه . تغنى بشباب النيل ، ولطالما تغنى بمصر ومجدها :

وقف الخلق ينظرون جميعا كيف أبنى قواعد المجد وحدى

أنا تاج العلاء فى مفرق الـ شرق ودراته فرائد عقدى

ويعجبنى قوله :

ورجالى لو أنصفوهم لسادوا من كهول ملء العيون ومرد

لو أصابوا لهم مجالا لأبدوا معجزات الذكاء فى كل قصد

وقوله :

كم بغت دولة علىّ وجارت ثم زالت وتلك عقبى التعدى
إننى حرة كسرت قيودى رغم رقبى العدا وقطّعت قدى

والقصيدة كلها على نمط واحد ، وهى فى الظاهر من الشعر السياسى أو الاجتماعى ، ولكنها فى الواقع أسلوب عال من شعر الحماسة ، شعر الغناء والوجدان ، شعر الحياة ، وسيبقى خالدا مابقى فى مصر قلب يخفق ، وشعب يسمو إلى العلياء .

وإنه ليطيب لنا فى المنتهى أن نذكر أن البارودى وشوقى وحافظ وشعراء العصر وكتابه وأدباءه جميعا ولا يزال منهم أحياء بيننا ، قد حملوا بشجاعة الشعلة المقدسة التى أضاءت الوادى فى عهد الظلام والاستعباد ، وأن النهضة الفكرية التى أوجدوها من العدم فى كبد ، وهم ناصب ، كانت خير مقدمة لثورتنا المباركة .

ولا يزال صدى غنائهم يحدو الركب ، وإن غاب الحادى .

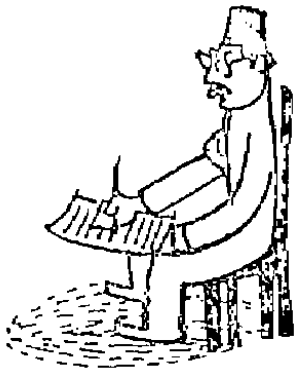

حياة حافظ

للأستاذ احمد حسن الزيات

ترى لو أن حافظا رحمة الله عليه تأخر به الزمن سبعين عاما فظهر في أواسط هذا القرن لا في أواخر القرن الماضي ، أكان ذكره يرتفع هذا الارتفاع وذكراه يحتفل بها هذا الاحتفال ؟

أغلب الظن أن حافظا لو نشأ في هذا الجيل لكان له أمر غير هذا الأمر ، وتاريخ غير هذا التاريخ ، ذلك أن العبقري ابن إقليمه وبيئته وزمنه وظروفه وأحواله ، فهي التي تعده وتكيفه وتوجهه ، وتتيح له الفرص لينجح ، وتهيء له الأسباب ليمتاز ، وتركز عليه الضوء ليظهر ، وعلى حسب عواملها المختلفة الأثر في النوابغ تكون طبيعة النبوغ ونوعه ودرجته . فالنابغ في شيء معين في زمن معين قد لا تتهيأ له وسائل النبوغ فيه إذا تغير الزمن أو اختلفت البيئة . فالمتنبي مثلا لو لم يظهر في القرن الهجري الرابع إذ كان الملوك شعراء ، والوزراء أدباء ، والشعب مرهف الحس لروائع الأدب لما ملأ الدنيا ، ولا شغل الناس . وابن عربي لو عاش في غير عصره الذي كان يؤمن بالروح والإلهام والولاية ، والفناء المطلق في الله ، والتعبير الرمزي عن الحقيقة ، لعد في المجانين لا في العباقرة . ونابليون لو انبعث

من عصر الجواد والسيف إلى عصر الطائرة والدبابة لما أغنت عبقريته الحربية عن قومه شيئا فى بور سعيد . وحافظ لو تأخر إلى هذا الجيل لاختلف عما كان عليه فى نمط حياته ، ونوع ثقافته ، ولون تفكيره ، وطبيعة قلمه ، ومدى نبوغه . كان لا يشتهر مثلا بابتكار النكت وجمع الأحاديث وحفظ الأشعار ، لأن النزوع إلى هذا النوع من التأدب كان مقتضى لحال اجتماعية زالت اليوم ، فلا مجالس للسمر فى قصور الملوك ، ولا محافل للأدب فى دور السادة . وكان لا يقتصر فى ثقافته الى علم الشاعر القديم لأن التكسب بالشعر أو بالمنادمة أصبح فى رأى هذا الجيل بطالة لا تغنى من جوع ، أو كدية لا تليق برجل . ولعله كان ينصرف عن الشعر إلى القانون أو الطب أو الحرب فلا يقول إلا تزجية لفراغ أو تسلية لهم ، لأن مجتمع الجيل الجديد كان لجهله باللغة الفصحى ، وزهده فى الأدب الرفيع لا يجد جمالا فى شعره ، ولا يلقى بالا الى إنشاده . أما مجتمع الجيل القديم فقد كان إذا طلعت عليه "المؤيد" أو "الأهرام" حالية الصدر بدرة من درر شوقى ، أو بقلادة من قلائد حافظ أقبل عليها يقرأها بشغف ، ويتذوقها بلذة ، وينقدها بعلم ، ثم تضطرب بها الألسنة وتتحدث عنها الأندية فتفعل فى نفوسه ما تفعله اليوم فى نفوسنا : (يا مه الأمر ع الباب) والجيلان الماضى والحاضر يتصلان ويتداخلان ويتعايشان ، ولكنهما على الرغم من المدة القريبة ، والصلة الوثيقة يختلفان أشد الاختلاف فى أحوال الاجتماع ، وألوان الثقافة .

كان جيل حافظ لا يزال يعيش على بقايا تخلفت من تقاليدنا الجميلة في الجماعات والأسر ، فالناس يجرون على أثر من خلال الفتوة العربية ، يرتاحون للندى ، ويتنافسون في المعروف ، ويهتزون للبطولة ، ويطربون للبيان ويجيزون على الشعر . ومناظر الدور ، وأبهاء القصور تأخذ في كل مساء زخرفها من أهل الأدب ورجال السياسة ، وأصحاب الجاه وأرباب الحكم . وكان مدار الحديث فيها على النكتة البارعة ، والخبر الطريف ، والمسألة الدقيقة والبلاغة المأثورة يتساقطها المساهرون على محض المودة ووثوق الألفة فتفتق الذهن ، وتصقل الذوق ، وتوجه الميل ، وتنيل الحظوة . وكانت المواهب والملكات تتفتح في جوانب هذه الأندية ، فتدل على نفسها أهل النفوذ فيقبلون عليها حتى تزهر وتثمر . وكانت النهضة الأدبية والحركة الفكرية يومئذ في طور الانتعاش تتحركان للنمو والسمو على نفحات المرصفي والبارودي ، والأفغاني ، ومحمد عبده ، وسليمان ، وحمزة ، والشنقيطي ، واليازجي والمويلحي ، ونديم ، وسعد ، وفتحي ، وقاسم ، ومصطفى . فالمجالس تشيع حر الكلام والصحف تذيع بارع النقد ، والحديويون يتخذون من الأدباء ندامى ومن الشعراء بطانة ، حتى قر في نفس حافظ وأنداده أن الأدب كان سبيل الثراء لليثي ، وسبب المجد للبارودي ، ووسيلة الزلفى لشوقي ، فتجهزوا لهذه الغاية بجهار هذه البيئة ، فرووا رقائق الشعر ، وجمعوا مقطعات الأحاديث وراضوا أنفسهم على معاناة القريض . وكان قادة الفكر والبيان في ذلك

الجيل من شيوخ الأزهر ودار العلوم ومن تخرج على أيديهم فى مدرسة الحقوق ومدرسة القضاء ومدرسة المعلمين العليا ، وكانت ثقافتهم تقوم فى الأغلب على الدين واللغة والأدب ، فهم يتعمقون القواعد ، ويؤثرون الفصحى ، وكان تراثهم فى المدن والقرى من طلاب الأزهر ، وحفاظ القرآن فهم يؤمنون بلغة الكتاب ، ويطربون للأسلوب العربى الخالص . أما الجيل الحاضر فخلاصة القول فيه أنه جيل اللغة العامية ، والثقافة الأجنبية ، والتحرر من قيود البلاغة فى النثر والخروج من حدود العروض فى الشعر ، والاتجاه إلى أدب وقتى يتطرف بكلام الشعب بلغته ، ويصوره فى مباذله ويفتنه عن حبه الغريزى لحسن العرض وجمال الأسلوب . فماذا كنتم تظنون أيها السادة أن يكون مصير حافظ لو أنه عاش فى هذا الجيل ، ومزيته الكبرى هى الصياغة ، وطريقته المثلى هى البلاغة ؟

ولد "محمد حافظ" فى السنة السبعين من القرن التاسع عشر بذهبية كانت راسية على ساحل ديروط بالصعيد الأعلى يقيم فيها أبوه المصرى الصميم "ابراهيم فهمى" مهندس الرى المشرف على القناطر ، وأمه التركية الأصل السيدة هانم البورصلية ، فكان أول ما فتح عليه عينيه من صور الدنيا نهرنا الخالد . فتلقيبه بعد ذلك بشاعر النيل تلقيب صادق يستمد صدقه من النفحات الشعورية الأولى فى هذه العوّامة ، ثم من التجارب الشعرية التى استجابت لها قريحته فى القاهرة . وظل مهده القائم بين الماء

والشجر محفوفا بمظاهر الحنان والنعيم أربع سنوات ، ثم بفجعه الموت فى أبيه ، فانتقلت به أمه إلى القاهرة ، ونزلت فى حى المغربلين على أخيها محمد افندى نيازى المهندس بمصلحة التنظيم ، وليس فى يدها مال موروث من الزوج ، ولا فى أملها معاش مقرر من الحكومة . ومنذ يومئذ عرف الطفل الفقير معنى البؤس ، فاغبر لون الوجود فى عينه ، وتفه طعم العيش فى ذوقه ، و بانت علائم اليتم على ملبسه وملابه ومكتبه ، فكان فى مرحلة التعليم الأولى بالمدرسة الخيرية بالقلعة ، وفى مرحلة التعليم الابتدائى بمدرسة القربية بتحت الربع ، وفى مرحلة التعليم الثانوى بالمدرسة الخديوية بدرب الجماميز يكابد ذل الحرمان كلما وجد أكثر رفاقه يطلبون فيجدون و يشتهون فينالون ، وهو إذا اشتهى طلب من أمه التى لا تملك أو من خاله الذى لا يجود .

ثم تدخل القدر فى حياة حافظ ليحول مجراها إلى الوجه الذى قدره ، فحوله من القاهرة والمدرسة الخديوية والوظيفة الحكومية إلى طنطا والجامع الأحمدى والبطالة الأدبية ، ولو أن خاله استمر فى القاهرة لنال حافظ شهادة الدراسة الثانوية ، وابتغى بها العيش فى ضمان الحكومة وانتهى أمره إلى أن يصير عبدا للرسوم الديوانية والصيغ التقليدية لا أميرا للشعر ولا زعيما للكتاب ، ولكنه انتقل إلى مثل وظيفته فى عاصمته الغربية فلا يجد حافظ فى طنطا مدرسة ثانوية ، ولم يجد فى مرتب خاله فضلا

يعيش عليه فى القاهرة ليتمم دراسته فى الخديوية ، فانقطع عن الدراسة وأخلد إلى البطالة وأخذ يرود المجالس و يغشى ، الأندية حتى اتصلت بينه وبين شداة الأدب من طلاب المعهد الأحمدى أسباب المودة ، فأجروه على مناهجهم فى الدرس ، وأعدوه من ولوعهم بالأدب ، فاختلف معهم كل يوم إلى حلقات الجامع الأحمدى يشاركهم فى درس النحو والصرف ثم ينفرد عنهم بالنظر المتصل فى دواوين الشعراء يقرأ منها الجيد ، و يحفظ الأجود ، و ينظم على مثال ما حفظ فى البحر والقافية والموضوع ، فإذا لقى إخوانهم فى مجتمعهم فى المدينة ، أو بمتنزههم فى الضاحية أمتعهم بالمعجب المطرب من حفظه ، وأسمعهم الجديد المختار من نظمه ، وكان من هؤلاء الإخوان المؤرخ الأديب المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار فوصف لقاءه الأول لحافظ بقوله : عندما عدت من القرشية الى المعهد بطنطا فى شعبان من سنة ١٣٠٥ هـ أبريل سنة ١٨٨٨ رأيت إخوانى وأصدقائى يلوذون بفتى غض الإهاب ، جديد الشباب ، وقد أسرعوا بتقديمى إليه ، وتقديمه الىّ باسم الأديب الشاعر محمد حافظ ابراهيم ، ولم تمر إلا عشية أو ضحاها حتى أحسست من نفسى ميلا اليه يجاذب من الأدب الذى نهمه نفسى حتى آل ذلك إلى غرام بأدبه وما اشتمل عليه من ظرف ولطف محاضرة ومطالعة بديهة ، وحضور نادرة ، وقد قضينا رمضان

هذه السنة نصلى المغرب والعشاء والتراويح معا ، ثم نلبث فى سمر ممتع ومطارحة للشعر، ومذاكرة فى نوادر الأدب، وما كان يطرفنى به مما يقف عليه من جيد القريض، إلى أن يأتى وقت السحور، ثم نعود بعد السحور إلى ما كنا فيه إلى انبثاق الفجر فنؤديه ، ثم نخرج بغلس إلى خارج المدينة ثم نعود وقد آذنت الشمس بالطلوع فيذهب كل منا إلى بيته " .

وظل حافظ على تلك الحال سنة أو تزيد يقرأ ويحفظ ويحاكى لا يبتغى بذلك بناء مستقبله ولا ضمان رزقه، وإنما يبتغى به تلك اللذة المجردة التى يجدها عشاق الأدب فى مطلق الهيام به والغناء فيه ، وهذه الحال الباهلة لازمت الشاعر طول عمره فلم يزاول عملا عن رغبة ، ولم يتحمل مسئولية عن إرادة . ونفوره من العمل كان أثراً لنفوره من الحياة، ونفوره من الحياة كان أثراً للعش الذى تقوض وهو طفل، ولعيشه الذى نبا وهو غلام ، والمظنون أن خاله وهو ولى أمره ومسدد خطاه قد حاول أن يعالج فيه هذه الحال ليضمن لأخته الأمان فى كنف وحيدها او أنه نجح فى صنعته أو وظيفته ، ولكن روح الاستهتار التى استمدها حافظ من أرواح الشعراء البوهيميين الذى اضطربوا فى حضارة العصر العباسى من غير نظام ولا قيد ولا غاية أصمت أذنيه عن النصح ، وشلت يديه عن

العمل . وكان من الطبيعى أن يضيق به خاله ويزوى عنه وجهه . ورأى من خاله هذا الإعراض فتنازعته خواطر لهم من يتم وعدم ، وهوان نفس وسوء حال ، فكتب الى نيازى أفندى هذين البيتين :

ثقلت عليك مؤونتى وأنا أراها واهيه
فافرح فإنى ذاهب متوجّه فى داهيه

والبيتان من ركيك الشعر ، ولكن فى قوله " متوجه فى داهية " أثرا من خفة ظله وعذوبة روحه . وكانت الداهية التى توجه فيها حافظ غرفة أحد إخوانه المجاورين فى الجامع الأحمدى فأقام معه زمنا . وكان شعره الساذج فى هذه الفترة يترجم عما يكابد فى صدره من لوعة الأسى ، وبغض الحياة . من ذلك ماروّاه رفيقه الشيخ النجار ، وهو قوله :

عجبتُ لعمرى كيف مدّ فطالا وما أثّرت فيه الهموم زوالا
وللموت مالى قد أراه مباعدا وجل مرادى أن أوسّد حالا
فالموت خير من حياة أرى بها ذليلا وكنت السيد المفضالا

ثم ترضاه خاله فعاد إلى داره ، وكأن وجود أمه فيه ، وزراية خاله عليه قد حركا فى نفسه الخامدة عزم الشباب وطموح الرجولة ، فعزم على أن يسعى للعيش المستقل الحر . ونظر فيما يملك لهذا السعى من وسائل فلم يجد خيرا من وسيلة البلاغة فاختار المحاماة . وكانت المحاماة يومئذ مفتحة

الأبواب لكل داخل مادام طلق اللسان حاضر البديهة واسع الحيلة ، فدخلها من باب سعد والهلباوى وأبو شادى وحسن عبد القادر . وكان أول مكتب اختاره للتمرين مكتب الشيخ محمد الشيمى بطنطا فبدأ بداية حسنة ، ثم اختلف مع الأستاذ على الأجر بعد قليل ، فتركه بعد أن ترك له هذين البيتين :

جراب حظى قد أفرغته طمعاً ببابِ أستاذنا الشيمى ولا عجبا
فعاد لى وهو مملوء فقلت له مَمّا ، فقال من الحسرات واحربا

ثم انتقل إلى مكتب المحامى النابه محمد أبو شادى فأجلّ قدره ، ورفع أجره ولكنه لم يلبث أن تحول عنه إلى مكتب عبد الكريم نهيم فعمل فيه مدة ، ثم أدركه الملال وعضه القيد ، فهجر المحاماة وعاد يزجى وقته بالتثاؤب والتمطى ويقضى يومه فى التلهى بالشعر ، والتجنى على القدر . وكانت المحاماة هى سبيله القصد إلى الثروة والشهرة لولا ما ركب فى طبعه من ضعف الاحتمال ولزوم القلق .

*
* *

وتحدثت الصحف والناس عن المدرسة الحربية فى نظامها الجديد فوقع فى نفس حافظ أن يدخلها ليخفف النفقة عن خاله ، ويضمن الرزق له ولأمه ، ثم تخرج فيها سنة ١٨٩١ وقضى فى الجيش ثلاث سنين وبعض

السنة . ثم نقل إلى العمل فى البوليس بنى سويف ، إذ كان المتبع قبل إنشاء مدرسة البوليس والإدارة أن يأخذ من الحربية للداخلية . ولم يلبث ملاحظ البوليس أن برم كعادته بالعمل ، وضاق ذرعا بالنظام ، فأخطأ وجاء به الخطأ ، واستلام واشتد عليه اللوم فلم يجد البوليس بدا من إعادته إلى الجيش بعد حادثة رواها هو عن نفسه قال : " كنت نائما فى بيتى وإذا برسالة من شيخ البلد فى قرية من قرى الشرقية لعلها الابراهيمية تقول : وقع حائط وزهقت أرواح . فانتقلت بغلس من الليل راكبا جوادى حتى وصلت الى القرية ، وراعنى أن وجدت جدارا قد انقض حقا وقتلت تحته ثلاث دجاجات . قلت لشيخ البلد أين الأرواح التى زهقت : فقال متلعثما : والله ياسيدى أنا تشاحنت مع نسائى فحلفت بالطلاق لأحضر البوليس هنا . وأخذت ألتمس الوسيلة إلى ذلك حتى علمت أن حائطا سقط ومات تحته ثلاثة أفراخ ، فأرسلت هذه الرسالة ليسرع إلينا البوليس وأبر بالقسم العظيم . فقلت له وأنا أكاد أتميز من الغيظ : والله لتكونن روحك إحدى الأرواح التى زهقت كما زعمت ، وانهلت عليه ضربا حتى كاد يفتق .

وعاد حافظ إلى الجيش ليحال إلى الاستيداع خمسة أشهر : ثم عاد اليه ثانية لينقل إلى السودان فيقضى به أربع سنين تحت قيادة عدوه كتشنر . وهنالك وجد الفرصة ليستغل فى نفسه براعة المحامى ، وبلاغة

الخطيب ، فكان يدافع عمن يقدم من الضباط إلى المجالس العسكرية الانجليزية . وفى خلال ذلك كان يؤرث نار الفتنة فى الجيش حتى ثار الضباط المصريون على رؤسائهم من الانجليز سنة ١٨٩٩ فاتهم بهذه الثورة هو وثمانية عشر ضابطا أحيلوا على الاستيداع ، وظل الضابط الثائر مستودعا ثلاثة أعوام ونصف عام ، ثم خرج على المعاش فى سنة ١٩٠٣

*
* *

عاد حافظ كما كان يضطرب فى الحياة النابية المبهمة لا يستريض لعمل ، ولا يستقر على أمر ، ولا يتشوق الى غاية . وظن أن الشعر وحده يشغل الحياة و يبسط الرزق و يكسب الحقوق ، فعاش عيش مسلم بن الوليد وأبى نواس وأضرابهما ممن قضوا أعمارهم صنائع للملوك ، ووسائل للهو وحمائل على الجوائز ، فأبى الوظيفة وآثر أن يحيا فى ظلال الإمام محمد عبده ينتفع بجاهه ويفىء إلى رفده ، و يغشى مع ذلك أبهاء النعمة يسامر أهلها بعذب حديثه ويناديمهم برقيق شعره . ثم يتطلع الحين بعد الحين إلى صلات القصر فيحجبه عنها شوقى شاعر الأمير بحوله وطوْله . ومن دأب الشعراء الكاسبين بالشعر أن يبذروا إلى حد السفه إذا عاشوا للحاضر ، كصريع الغوانى وابن هانئ وأن يقتروا إلى حد الكزازة إذا عاشوا للمستقبل كأبى العتاهية والبحترى . ومن الأولين كان حافظ . تمتلىء يداه بالمال اليوم فتعتريه حال من الضجر والقلق لاينفك عنه حتى يتلفه كله قبل الغد

على إخوانه الكثيرين من طرائد البؤس وصرعى الأدب كإمام العبد وخليل نظير، ثم يطارحهم بعد ذلك على مقاعد القهوة الشعر الباكى فى لؤم الزمان، وظلم الإنسان، وشقاء الأديب . كان حافظ يطلب الثروة على قدر طموحه، والحظوة على قدر نبوغه . ولكنه طلبهما من طريق الحق الذى يدعيه كل شاعر على الناس، لا من طريق الواجب الذى يؤديه كل انسان إلى المجتمع . فلما أخفق بالطبع لم يرد أن يعيش كما يعيش سائر الناس على العمل الميسور، وإنما ارتد ارتداد الأنوف المحتج الى الفلاكة الشاعرة الصابرة يحمل بؤسه على حرفة الأدب كما يحمل المؤمن رزأه على حكمة القدر، ثم عاش عيش الطائر الغرد، عمره ساعته ، ودنياه روضته ، وشريعته طبيعته ، ودأبه أن يطير فى الغيم والصحو ، ويشدو فى الطرب والشجو ، ثم يسقط على الحب أينما انتثر .

فلما عطف عليه الوزير الأديب أحمد حشمت فأكرمه سنة ١٩١١ بالعمل فى دار الكتب رئيسا للقسم الأدبى ، وأجزل له المرتب طمعا فى مواهبه وثوابا على فضله حمل الوظيفة على محمل المكافأة الواجبة ، وظل أكثر النهار قاعدا فى قهوة الكتبخانة ، فإذا طلب الى الدار لعمل تقتضيه الرياسة قال للجرسون : " اذا سأل عنى واحد . قل له راح الكتبخانة شوية وجاى " .

ولقد كان من جريرة هذه الحياة التى حيها حافظ أن شغلته عن الدرس والقراءة ، فلم يتكمل بثقافة، ولم يتعمق فى فلسفة . كان يترجم رواية مكبث لشكسبير فدعى مرة ليحاضر فى نادى المدارس العليا، وهو يومئذ مجمع الشباب الصالح المثقف فقام فأنشدهم بعض ما ترجم نظما عن شكسبير، ومثله تمثيلا أفرغ فيه جهده فأطرب وأعجب ، ثم سألوه المحاضرة فأخذ يلقى عليهم من نوادره حتى مضى الوقت ولم يقل شيئا .

كذلك كان من جرائر هذه الحياة عليه أن انبهم فى نفسه معنى المنزل ، وخمد فى حسه شعور الأسرة ، وذوى فى قلبه حب المرأة ، فلما ألحت عليه أمه أن يتزوج بعد عودته من السودان سنة ١٩٠٦ بنى بامرأة من حى عابدين ، وحاول أن يصبر نفسه على حياة الزوجية فلم يستطع الصبر إلا أربعة أشهر ثم طلقها . وسئل مرة هل أحب ؟ فقال : النساء اثنتان جميلة تنفر من قبحى ، ودميمة أنفر من قبحها . ولذلك جف فى شعره ينبوع هذه العاطفة فلم يقل فى الغزل شيئا يذكر .

*
* *

كان حافظ منذ أدرك مطبوعا على اليتم لا يعرف إلا أنه ابن القدر .

ومع ذلك كان خلطاؤه يرون على وجهه لونا من الرضا لا يتغير فى نعيم ولا بؤس . ومن عجيب الأمر فى هذا اليتيم الحزين أنه كان قوى الملكة

فى فن الضحك . كأن الله عوضه من نضوب معانيه فى قلبه فيضان ألفاظه على لسانه .

والمعروف أن نبوغ المصرى فى ابتكار النكتة وابتعاث الضحك إنما كان تعويضا له من الكروب التى كابدها فى عهود الطغيان والموتان والذل . كان حافظ يتقصص النوادر والفكاهات من مظانها فى الكتب ورجال الأدب وأهل المجون ، فإذا قصها على من يجالسه زاد فى أسلوبها أسلوبه هو ، وجعل يقلبها ويتصرف فيها ، ويبين عنها بمنطقه ووجهه ، ونبرات من لسانه ، وحركات من يده . وهو فى غزارة محفوظه من الطرف والأشعار والأسمار أوحد الناس بالإجماع . حدثنى المرحوم "الرافعى" أنه اجتمع فى سنة ١٩١٢ بحافظ على مائدة مدير الغربية محمد محب ، فلما مدت الأيدى إلى الطعام قال له المدير : لى عليك شرط يا حافظ ، قال ما هو ؟ قال : كل لقمة بنادرة ، فتململ وجهه وقال لك على ذلك . ثم أخذ يقص ويأكل والعشاء حافل ، وحافظ كان نهما فما انقطع ولا أخل حتى وفى بالشرط .

وتذاكرنا يوما كثرة ما كان يحفظ من الشعر فقال الرافعى : نشرت مصباح الشرق فى سنة ١٩٠٠ قصيدة من مطولات ابن الرومى . وكنا يوم صدورها فى مجلس يضم حافظا وبعض الأدباء ، فتعجب الشيخ محمد المهدى

أستاذ الأدب فى دار العلوم من بسطة ابن الرومى فى قوافيه . فقال له حافظ هلم نتساجل فى هذا الوزن حتى ينقطع أحدنا ، وكانت القافية من وزن : قدرها ، أحمرها ، أكبرها ، وجعلت أنا أحصى عليهما فلما ضاق الكلام كان الشيخ المهدى يفكر طويلا ثم ينطق باللفظ . ولا يكاد يفعل حتى يرميه حافظ على البديهة ، فيعود الرجل إلى الإطراق والتفكير حتى انقطع أخيرا وبقى حافظ يسرد له ما يحفظ من هذا الوزن على هذه القافية .

*
* *

سيداتى ، سادتى :

عاش حافظ زهاء اثنتين وستين سنة كانت نوما مضطربا من غير حلم ، أو كما قال هو : كانت حلما مزعجا من غير نوم . فلما أوى فى الثلث الأخير من حياته إلى كنف الأمان من منصبه فى دار الكتب استراح للخفض واستنام للدعة ، وأعنى قريحته من قول الشعر فلم ينظمه إلا مدفوعا إليه حينا بعد حين . كان همه كله فى الحديث يضطرب نهاره من قهوة إلى قهوة ، ويتقلب ليله من مجلس إلى مجلس . وأينما يكن يكن الأنس الشامل ، والظرف الناصع ، والأدب الغض ، والحديث الذى يمتزج بالروح ، ويضمر بالنشوة جوانب النفس . كان يعيش بعد خروجه من الجيش مستقلا مع أمه ، فلما توفيت سنة ١٩٠٨ عاد إلى المعيش فى بيت خاله . ولما توفى خاله ظل يعيش مع زوجته السيدة عائشة ،

يقوم على رعايتها بإخلاص الابن البار، وتقوم على خدمته بحنان الأم الرؤوم حتى شارفت حياتهما الأجل الموقوت فتوفاها الله سنة ١٩٢٩ وتوفاه بعدها بثلاث سنين. وكانت هذه السنوات الثلاث عكارة العمر وصبابة الكأس، تجمعت فيها وحشة العيش بعد أن خلت دنياه من أمه وخاله وزوجة خاله، وهم الثلاثة الذين لازموه طول العمر، وشاركوه فى الحلو والمر. وانضوى فيها إلى حزب الوفد وانقطع إلى الزعيم سعد، فأطلق لسانه بالسوء فى رئيس الحكومة إذ ذاك اسماعيل صدقى، فأخرجه من وكالة دار الكتب سنة ١٩٣٢. وترادفت عليه بعدها الأمراض، فأصبح لا يشتهى الطعام ولا يستلذ الشراب، ولا يجد الراحة إلا فى منزله الصغير بضاحية الزيتون. وفى الساعة الخامسة من صباح يوم الخميس الحادى والعشرين من شهر يوليو بعد خروجه على المعاش بأربعة أشهر ونصف شهر انتقلت روحه إلى الخلد وبقيت ذكراه للخلود.

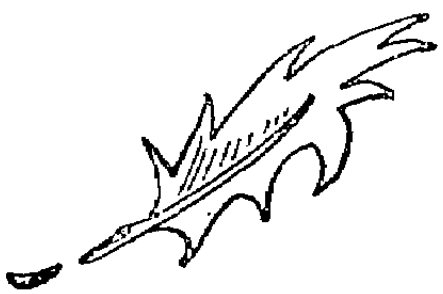

الشعر العربي في سفر حافظ

للأستاذ شفيق جبري ممثل سوريا

قدم حافظ إبراهيم دمشق الشام سنة ١٩٢٩ فاحتفى به المجمع العلمي العربي ، وعلق على صدره وسام الاستحقاق السوري وهو ينشد هذين البيتين :

شكرت جميلَ صنعِكُمُ بدمعي ودمعُ العين مقياس الشعورِ
لأولِ مرةٍ قد ذاق جفني على ما ذاقه دمع السرور

وقال الشعراء فيه قصائدهم وأذكر أن من الشعر الذي قيل فيه :

أرى رجالا على الأهرام ديدنهم حل الأواصرِ من طي وشيبانِ
تنكبوا عن صميم العربِ واعتصموا بجبلِ رمسيس أحدانا بأحدان
أعيذها خطراتٍ ملؤها مضض أن تهدم الشرق أركانا بأركان

مضى على هذا الشعر ثمانية وعشرون عاما فبدلت الأرض غير الأرض والسموات .

من شهرين سألتنى السفارة المصرية فى دمشق أن أذكر لها عنوان الموضوع الذى وقع عليه اختيارى فى مهرجان حافظ إبراهيم وعرضت على الموضوعات التى اختارها أساتذة مصر الفضلاء فى المهرجان، فقلت للذى كان يفاوضنى فى هذا الأمر[1]: لم يبق لى فضلاء مصر أفقا أجول فيه، فهم لم يغادروا من متردّم ، فقال لى : عليك النزعة العربية فى شعر حافظ ، فوقع هذا الاقتراح منى موقعا حسنا ، وأنا لم أنظر إليه لأنه نجانى من ضيق ولكنى نظرت إليه من وجهٍ آخر ، قابلت بين هذا الشعرِ الذى قيل فى حافظ من ثمانيةٍ وعشرين عاما فى دمشق ، وفيه عتاب مصر بسبب زهدها فى القوميةِ العربيةِ و بين قولِ السفارةِ المصرية : عليك النزعة العربية فى شعرِ حافظ وفيه اهتمام بهذه القوميةِ ، قابلت بين هاتين الفكرتين ، فعجبت من تغير العصورِ ، عصر تكاد مصر فيه تزهد فى النزعةِ العربيةِ وعصرٍ تهب فيه مصر لتذكير بلادِ العربِ بهذه النزعةِ، والحضِ على الأخذِ بأسبابها والاستمساكِ بالعروةِ الوثقى من القوميةِ العربيةِ ، والإيمانِ بقوةِ هذه القومية وبمحاسنِ آثارها فى نزاعِ العالم ، ولا أدل على هذه القوةِ من تضافرِ العربِ يوم "بور سعيد" وما أدى إليه هذا التضافر من نصر مبين .

---

(١) الصديق الكريم السيد أحمد فتحى رضوان مستشار السفارة وهو أقدر من عرفت على فهم دقائق الأمور فى سورية .

فهل ارتجلت فكرة القومية العربية ارتجالا فى مصر وفى شعر حافظ إبراهيم ، ليس فى الطبيعةِ إنقلابات تفاجىء العالم مفاجأة ، فما حدث على وجهِ الأرضِ من الانقلاباتِ فى خلال العصورِ إنما كان نتائج علل بطيئةٍ فى سيرها متئدةٍ فى عملها ، فقد تتحول مجارى البحارِ ، وقد ينحدر الجليد من أعاليه إلى السهولِ دون أن نشعر بهيجانِ البحارِ و جماحِ الجليد ، وما يجرى فى الطبيعة يجرى فى المجتمع ، ولكن على تفاوتٍ بين سرعةٍ وسرعة .

لم ترتجل القومية العربية فى مصر وفى شعرِ حافظٍ ارتجالا ، و إذا رجعنا إلى طائفةٍ من أئمةِ الفكرِ والشعرِ وجدنا أنهم بعثوا فى أثناءِ القرنِ التاسع عشر والقرنِ العشرين هذه القومية من مدافنها ، وتغنوا بمحاسن العربِ ودلوا على روائعِ آثارها ، وعلموا الناس أصول الحرية والاستقلال ، إذا رجعنا إلى هذه الطائفةِ من الكتّابِ والشعراءِ رأينا أن كتاباتهم وقصائدهم مملوءة بالقوميةِ فلم تصل بلاد العرب فجأة إلى حريتها واستقلالها فى هذه الأيامِ و إنما مهد لهذه الحرية وهذا الاستقلالِ ردحا من الدهرِ حتى اختمرت فكرة القومية فى الأذهانِ ونضج الشعور بها فى القلوبِ ، فلما أمكنت الفرص اغتنمتها بلاد العرب ولم تضع مناهزها .

فلنبادر بعد هذه المقدمةِ الوجيزةِ إلى التمتع من نزعةِ حافظ العربية .

لست أحاول أن أضيع فى شعر حافظ بين نزعاته العربية المشتتة فى تضاعيف هذا الشعر، وإنما حسبى أن أجتزئ بواحدة من هذه النزعات يكاد يظهر فيها الصفاء فى أوضح مظاهره :

واهاً على دولةٍ بالأمس قد ملأت ... جوانب الشرق رغدا من أياديها
كم ظللتها وحاطتها بأجنحةٍ ... عن أعين الدهر قد كانت تواريها
من العناية قد ريشت قوادمها ... ومن صميم التقى ريشت خوافيها
والله ما غالها قِدما وكاد لها ... واجتث دوحتها إلا مواليها
لو أنها فى صميم العرب قد بقيت ... لما نعاها على الأيام ناعيها
باليتهم سمعوا ما قاله عمر ... والروح قد بلغت منه تراقيها
لا تكثروا من مواليكم فإن لهم ... مطامعا بسمات الضعف تخفيها

نلمح فى هذه الأبيات القوية إخلاص حافظ للعرب حبه، فكأنه يريدها دولة عربية لا أثر لأعجمى فيها لأنه يعلم أن نكبة العرب فى كل دهر، فى قديمه وحديثه كانت على أيدى الأعاجم، ففى القديم قتلوا عمر وكانوا سببا فى تهديم بنى أمية وإضعاف بنى العباس؛ وفى الحديث وقفوا فى سبيل حرية العرب واستقلالهم، وما زالوا يقفون هذا الموقف نفسه .

لا أحاول أن أضع بين هذه النزعات الصافية الخالصة وإنما أحبس قولى على نزعتين منهما وكأنهما زينة شعر حافظ العربى ورونق قلبه

العربى ، وأريد بهما تغنيه بوحدة العرب و بلغة العرب ، ففى هاتين النزعتين يظهر حافظ فى حقيقته ، لا يؤثر فيهما بعض دمه التركى ، وإنما نفض عنه كل أثر غير أثر العرب وظهر فى روحه العربية وقلبه العربى وشعوره العربى .

فطن حافظ ابراهيم إلى منزلة الشعر فى جمع الأهواء والتأليف بين القلوب فاستخدم شعره فى هذه الغاية النبيلة .

لقد وقع بعض الجفاء بين المصريين و بين طائفة من الشاميين المقيمين بمصر ، وأشار الى هذا الجفاء أحد الكتاب الذين عاشوا فى مصر فى أوائل القرن العشرين وأيد ذلك قول حافظ :

لولا رجال تغالوا فى سياستهم منا ومنهم لما لمنا ولا عتبوا

فعزم جماعة من السوريين على تكريم حافظ فى فندق « شبرد » فعمل حافظ قصيدته : سورية ومصر وأنشدها سنة ١٩٠٨ !

لم يقنع حافظ فى مصريته الضيقة ، فقد كان يعلم أن هذه اللغة التى ينطق بها ثمانون مليون عربى جديرة بأن يستخدمها هو وأمثاله من الشعراء فى جمع هذه الملايين المتناثرة على بقاع واحدة من الأرض . بدأ بالتأليف بين مصر والشام لأنه كان يعلم حق العلم كثرة التشابه بينهما فقد كانت أقدارهما على نحو ما ذكره أحد المؤرخين «واحدة فى عهد الدول الإسلامية

وحياتهما الاجتماعية متجانسة. هكذا كانت مصر والشام فى دولة الراشدين والدولة الأموية فالعباسية فالطولونية فالفاطمية فالأيوبية، فدولة الأتراك والمماليك، فدولة الجراكسة، فدولة الترك العثمانية. وكانت مصر منبعث حضارة فى معظم أزمانها كما كانت فى العقود الأخيرة من حياتها ملجأ ومعتصما للأحرار، ومباءة ممتازة للعلم الاسلامى تأخذ عنها الأقطار والأمصار».

عرف حافظ إبراهيم هذا كله، وعرف أن الشعر إنما هو أقدر الصيغ على نزع البغضاء من الصدور والقاء المحبة فى القلوب فقال قصيدته:

لمصر أم لربوع الشام تنتسب هنا العلا وهناك المجد والحسب

وأشار فيها إلى اشتراك هذين القطرين العظيمين فى تاريخ واحد وآلام واحدة وحب واحد:

اذا ألمت بوادى النيل نازلة باتت لها راسيات الشام تضطرب

وإن دعا فى ثرى الأهرام ذو ألم أجابه فى ذرا لبنان منتحب

لو أخلص النيل والأردن ودهما تصافحت منهما الأمواه والعشب

ولم يبالغ حافظ إبراهيم فى تصوير هذه الصلة المستحكمة بين مصر والشام من قديم الدهر، وإذا أردنا برهانا على هذه الصلة الروحية وجدناه فى اضطراب الشام يوم بورسعيد الأخير.

وكأن حافظا لم تنقع غليله هذه النفحة السماوية التى ألّف بها بين مصر والشام فأحب أن يطلع على العرب بنفحةٍ أوسع مدى وأبعد مذهبا أوحتها اليه ديار الشام لما قدمها بعد واحدٍ وعشرين عاما ، فاذا ذكّره الشام ، لقد ذكرته بنى أمية وما اشتملت عليه خلافتهم من المحامدِ التى لا تبلى :

أبت أميـــة أن تفنى محامدها ... على المـدى وأبى أبنـاء غسان

فمن غطـارفةٍ فى جِلـقٍ نجب ... ومن غطارفةٍ فى أرض حورانِ

عافوا المذلـة فى الدنيا فعندهم ... عِز الحيـاة وعز الموتِ سيّانِ

لا يصبرون على ضيمٍ يحـاوله ... باغٍ من الإنس أو طاغ من الجان

فكما اتسع أفق شوقى فى نزعته العربية بعد زيارته الأندلس وملء خاطره من آثارِ العربِ فى هذه الجنةِ الخضراء ، فكذلك اتسع أفق حافظٍ فى هذه النزعة بعد زيارته الشام ، لقد أوحت الأندلس إلى شوقى شعرا تأججت القومية فى قلائده فقال فى دمشق قصيدته الخالدة :

بنـو أميـة للأنبـاءِ ما فتحوا ... وللأحاديثِ ما سادوا وما دانوا

كانوا ملوكا سرير الشرقِ تحتهم ... فهل سألت سرير الغربِ ما كانوا

عالِين كالشمسِ فى أطرافِ دولتها ... فى كلِ ناحيـةٍ ملك وسلطان

يا ويح قلبى مهما تناب أرسمهم ... سرى به الهم أو عادته أشجـان

بالأمس قمت على الزهراءِ أندبهم والليوم دمعى على الفيحاءِ هتّان
معادن العزِ قد مال الزغام بهم لو هان فى تربهِ الابريز ما هانوا

وأوحت الشام الى حافظٍ شعرا يوحد به العرب :

عهد الرشيدِ ببغدادٍ عفى ومضى وفى دمشق انطوى عهدابنِ مروانِ
ولا تسل بعده عن عهدِ قرطبةٍ كيف انمحى بين أسيافٍ ونيرانِ
فعلموا كل حى عند مولدهِ عليك للهِ والأوطانِ دينانِ
حتم قضاؤهما ، حتم جزاؤهما فاربأ بنفسك أن تمشى بخسران
النيل وهو الى الأردنّ فى شغفٍ يهدى الى بردى أشواق ولهانِ
وفى العراقِ به وجد بدجلتهِ وبالفراتِ ، وتحنان لسيحان

فهكذا نجد حافظاقد خرج عن قوميةٍ ضيقةٍ تضم مصر والشام إلى قومية رحبةٍ تسع بلاد العربِ ، فليت الله بعثه فى هذه الأيام حتى يرى بعينيه أن عهد الرشيد لم يعف ببغداد ، وأن عهد ابن مروان لم ينطو فى دمشق ، ليت الله بعثه حتى يرى بعينيه أثر شعره فى استيقاظ العربِ من رقدتهم ، وما أدت اليه يقظتهم من نعمة الحريةِ والاستقلال .

فكما جمع شعر « هوميروس » فى الماضى قلوب اليونانيين فكذلك جمع شعر حافظٍ فى الحديث قلوب العربِ ، وإذا كانت الأسماء والصور

والرموز والتقاليد التى وحد بها شعراء الاغريق قبائلهم هى التى خلقت اتحاد الاغريق ، فإن أشباه هذه الأسماء والصور والرموز والتقاليد فى شعر حافظ ابراهيم كان لها أبلغ الأثر فى وحدة العرب .

ولكن الأفق الذى لاحت منه نزعة حافظ العربية إنما هو أفق اللغة فقد استفاضت على ما يظهر دعوة الى استعمال اللغة العامية فى مصر بدلا من الفصحى . صاحب هذه الدعوة رجل من الانكليز جاء مصر ، وخطب فى هذا الموضوع ، وكتب على نحو ما قرأت فى خطبة من الخطب التى قيلت فى تأبين حافظ ابراهيم فى دمشق ، فكادت الدعوة تعم لولا أن وقف فى وجهها شيوخ اللغة وحماتها ، وكان حافظ ابراهيم لسان أولئك الشيوخ والحماة ، فقد نشر قصيدته : اللغة تنعى حظها بين أهلها فى سنة ١٩٠٣ أى فى مطلع القرن العشرين ، وقد كانت القومية اختمرت أقوى اختمار أو كادت على أيدى رجال الفكر والشعراء .

يقول حافظ فى القصيدة على لسان اللغة :

أيطربكم من جانب الغرب ناعب ينادى بوأدى فى ربيع حياتى

وكأن هذا الناعب الذى ينادى بوأد اللغة وهى فى ريعان شبابها إنما هو الرجل الانكليزى الذى دعا إلى العامية فى حينه .

لو رجعنا إلى عناصر هذه القصيدة لوجدنا أنها تشير إلى سعة لغة العرب التي وسعت كتاب الله ، وإلى تقاعس العرب عن لغتهم ورميها بضيقها عن استيعاب الحضارة ومذاهبها ، وإلى الترحيم على الذين حفظوا لغة العرب في الغابر من السنين وغاروا عليها ، وإلى تقريع أهلها وأبنائها من أجل هجرانها والزهد فيها وقد تضمنت القصيدة غير ذلك من النزعات التي تدل دلالة قوية على حرص حافظ على القومية العربية :

وسعتُ كتاب الله لفظا وغاية ... وما ضقت عن آيٍ به وعظاتِ

فكيف أضيق اليوم عن وصف آلةٍ ... وتنسيق أسماءٍ لمخترعاتِ

أنا البحر في أحشائه الدر كامن ... فهل سألوا الغواص عن صدفاتي

فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسني ... ومنكم وإن عز الدواء أساتي

فلا تكلـــوني للزمان فإنني ... أخاف عليكم أن تحين وفاتي

قذف حافظ بهذا الشعر المؤثر وقد نضجت القومية كما قلت ، واشتد الدفاع عن لغة العرب والتغنى بآثار هذه اللغة وخصائصها . لقد صدرت قصيدة حافظ في مطلع القرن العشرين ، ولكن أئمة اللغة لم يقصروا في خلال القرن التاسع عشر في النهوض باللغة والمراماة دون حيائها ، ووضع بعض المصطلحات لما تفاجأ به من مستحدثات الحضارة ، وإذا ذكرت أئمة اللغة الذين دافعوا عنها في مصر والشام والعراق فما ينبغي لي أن أغفل

عن الأستاذِ الإمامِ الشيخ محمد عبده ، أو عن الشدياقِ واليازجى وأضرابهم وقد بلغ حب الشدياقِ للغته أنه كان لا يذكر لغـة العربِ إلا قرنها بصفةِ الشرفِ ، وكان يفضلها على اللغاتِ كلها ، بقاءت قصيدة حافظ فى هذا البابِ خاتمة لهذه النزعةِ الفويةِ التى استفاضت فى القرن التاسع عشر .

وحرام أن نمر بهذه القصيدةِ دون التنبيهِ على فضيلةِ حافظ فى إدراكه حقيقة اللغة ومنزلتها من الأممِ فقد أدرك حافظ ابراهيم أن اللغة إنما هى وطننا الروحى ، وإذ ذهب الوطن ورسومه بقيت اللغة وآثارها ، لقد انبسط ظل الأعاجمِ على مصر والشامِ والعراقِ أحقابا طويلة ، ولئن استطاعوا السبيل إلى الاضطهادِ فهم لم يستطيعوا أن يمنعوا شـعر المتنبى والبحترى وأبى تمام عن أن يقوم مقام وطنٍ مضهد ، أفلم تقم فى المـاضى لغـة " هوميروس " شاعرِ اليونان مقام وطنِ اليونانيين الذين أرهقهم الاضطهاد ، اللغة إنما هى مملكة العقلِ الذى لا يعرف الحدود ولا الموت ، لقد أصبحت قبور الجاحظِ وابنِ المقفع وعبدِ الحميد وغيرهم من أمراءِ البيان دوارس ، لا عين ولا أثر ، ولكن بيان هـذه الطبقةِ من رجالِ العبقريةِ ظل يرتفع إلى أعنانِ السماءِ حتى عصرنا هذا .

قيمة اللغة ما تعطيه البشرية ، فهى تموت فى اليوم الذى لم يبق لها شىء نافع تعطيه ، فاللغة العربية كانت لغة ملايين من البشر ، نشأت فى القفارِ والصحارى ، ثم أصبحت لغة دينٍ ومثلٍ أعلى وفتوحٍ وبطولاتٍ ، ثم أصبحت

لغة أدبٍ بلغ فى عصورِ العربيةِ كل مبلغٍ من النضج ، ثم أصبحت لغة فلسفةٍ وعمرانٍ واجتماع .

أدرك حافظ إبراهيم هـذا كله ، أدرك أن اللغة ليست مجرد ألفاظٍ وأصواتٍ وإنمـا هى عالم معنوى ، فإذا لم يعطها أهلها روحهم فلا تبلغ القلوب المبالغ ، واللغة العربية أعطاها أئمتها فى القديم كل ما ملكوه من العبقرية فى مذاهبِ الفكرِ ، وأعطاها شيوخها وشعراؤها فى القرنِ التاسع عشر والقرنِ العشرين مثل هذه العبقريةِ فظلت خالدة على الدهر بفضلِ حافظ إبراهيم ونظرائه من أحبابِ العربيةِ ، وستظل ناعمة بهذا الخلود أبد الآبدين .

هذه اللغة هى التى أحبها حافظ ، وصور هذا الحب فى شعره أبلغ تصوير فنفخ فيها روحه وقلبه ، وأفرغ فيها عبقريته ، وتغنى بعظمتها ، وذاق محاسنها وبلا حلاوتها ، فنعى على أهلها تنكرهم لها ، ونقم عليهم تقصيرهم فى رفع شأنها .

فإذا بحثنا عن النزعةِ العربيةِ فى شعر حافظ ابراهيم فلا نكاد نجد فى شعره أبلغ من هذه النزعةِ وأنطق منها .

فلنمجد الذين يواظبون على جعلِ العربيةِ لغة شعرٍ وعلمٍ وفلسفةٍ وتاريخٍ ونقدٍ وصحافةٍ وخطابةٍ ، ولنمجد الذين يحرصون على صفائها ويحولون دون شيخوختها وهرمها ، وحافظ إبراهيم على رأس هذه الطبقةِ .

سلام على مصر ! سلام على شاعرها الخالد .

الوطنية في شعرها

للدكتور عبد الوهاب عزام

عنى العرب منذ أولية تاريخهم ، وأقدم أزمانهم ، بأن يسجلوا في الشعر ما يعنيهم من الأمور وما يهمهم من الأحداث ، فاتخذوا الشعر ديوان مآثرهم وكتاب حربهم وسلمهم ، وسفر مفاخرتهم ومنافرتهم . لا تقع الحادثة التي تروعهم أو تعجبهم أو تهمهم إلا تناقلتها الألسن وتداولتها الأشعار ، حتى قيل قديما : الشعر ديوان العرب .

ولا يزال العرب اليوم في بواديهم وحواضرهم على هذا السنن ، تثير الحوادث عواطفهم أو تروع أفئدتهم أو تنال إعجابهم ، فيعمدون إلى الشعر يسجلونها فيه ، ويشحذون بها العزائم في النائبات ويستنهضون الهمم في الملمات ، ويشيدون أمثالها من تاريخهم ، ويقيسونها بأكفائها من مفاخرهم وأحسابهم ليلقوها بعدتها من الأهبة والثبات والجهاد والإقدام ، وليأخذوا منها العظات والعبر ، بل كثيرا ما يسجل العرب الحادثات الصغيرة والواقعات الهينة ، وكثيرا ما يتفكهون بالحوادث المضحكة ويسخرون منها . تنطق بهذا كتب الأدب العربي قديمه وحديثه ، وروايات البادية والحاضرة .

ولم يحد عن هذا النهج شعراء الأقطار العربية فى عصرنا هذا ، وممن سار على هذه الطريقة وعرف بها وشهر فيها شاعر مصر فى الثلث الأول من هذا القرن العشرين الميلادى حافظ ابراهيم ، لم يأل جهدا فى الإشادة بالحوادث فى شعره يذكر بها أمته ، ويعظ بها قومه ، يحفزهم الى المعالى ويحثهم على المكارم ، ويدعو الى العيشة الكريمة والخطة القويمة ، وابتغاء العزة والكرامة ، وطلب المجد الذى يكافىء مكانتهم بين الأمم ، ويلائم هيبتهم فى العالم .

وقد وفر الزمان نصيب أمته من الخطوب فى حياته ، وأدار عليها كثيرا من الدوائر فى أيامه ، فكان كما قال أبو الطيب :

وقد وجدت مجال القول ذا سعة فإن وجدت لسانا قائلا فقل

كان محمد حافظ فى حدود العاشرة من عمره حين منيت مصر بما منيت به من احتلال الانجليز وتسلطهم عليها ، ونيابهم من سلطانها وعزتها ، وصدهم إياها عن المضى فى سبيل الاستقلال الذى سارت فيه ، وطريق المجد الذى استقامت عليه .

وكان هو فى صباه مرهف الحس ، رقيق الطبع ، فيه مواهب الشعر ، ومخايل البيان ، وقد شرع يظهر مواهبه ويبين فى الشعر مناقبه ، وهو

فى حدود الخامسة عشرة من سنه . وتوفى حين جاوز الستين . فقد عاش زهاء خمسة وأربعين عاما منذ شدا فى الشعر وغرزم فى فنونه . وقد أمضاها كلها والبلد فى بلاء الاحتلال ، تجاهده بين اليأس والرجاء ، وتصيبها منه البأساء والضراء .

وجمهرة أشعار حافظ نظمت ما بين سنة ١٩٠٠ من الميلاد إلى وفاته سنة ١٩٣٢ ، وقليل مما بين أيدينا من شعره نظم فى آخر القرن الماضى فى الخمس سنين الأخيرة منه . فشعره الذى بين أيدينا نتاج نيف وثلاثين سنة من عمره .

*
* *

صحب الشاعر تاريخ مصر فى هذه الحقبة ، وساير غيرها وتتبع حوادثها يذوق حلوها ومرها ، ويبلو خيرها وشرها ، وينضح عنها فى شعره ويشيد بها ، ويستخرج العظات والعبر منها ، ويحفز أمته على العلات إلى دفع الضيم وطلب العزة ، ويعرفها الداء والدواء ، ويبصرها بعيوبها ، ويجبهها بنقائصها ، ويدعوها إلى إصلاح الفاسد وتقويم المعوج وجمع الشمل وتأليف القلوب والأيدى ، والمضى إلى المعالى يستسهلون فى سبيلها كل صعب ، ويبذلون كل نفيس ، ويضرب لهم الأمثال ، ويعرض عليهم

من التاريخ المثلات . هتم مصر يهمه وينصبه ، وحبها يؤرقه ويعذبه ؛ كما قال سنة ١٩٠٩ م :

لعمرك ما أرقت لغير مصر ... ومالى دونها أمل يرام

ذكرت جلالها أيام كانت ... تصول بها الفراعنة العظام

وأيام الرجال بها رجال ... وأيام الزمان لها غلام

فأقلق مضجعى ما بات فيها ... وباتت مصر فيه . فهل ألام ؟

أرى شعبا بمدرجة العوادى ... تمخخ عظمه داء عقام

إذا ما مر بالبأساء عام ... أطل عليه بالبأساء عام

هلاك الفرد منشؤه توان ... وموت الشعب منشؤه انقسام

وإنا قد ونينا وانقسمنا ... فلا سعى هناك ولا وئام

فساء مقامنا فى أرض مصر ... وطاب لغيرنا فيها المقام

فلا عجب إذا ملكت علينا ... مذاهبنا وأكثرنا نيام

*
* *

فأما قصائده التى أنشأها فى حادثات سياسية أو ذكرى حادثات ، أو أنشدت فى محافل سياسية فالأمر فيها بين . فى حوادث دنشواى رفع صوته يتألم ويتظلم على قدر ما يرتفع صوت المتألم المتظلم فى ذلك العهد .

وفى إحدى قصائده بعد خمس وعشرين سنة مضت على الاحتلال يلوم أمته على السكوت، ويتحسر لضعفها، ويقول للانجليز :

أحسنوا القتـــل إن ضننتم بعفو أنفوسا أصبتم أم جمادا
ليت شعرى أذلك محكمة التفتيش عادت أم عهد نيرون عادا
كيف يحلو من القوى التشفى من ضعيف ألقى اليه القيادا
إنها مثـــلة تشف عن الغيظ ولســـنا لغيظكم أندادا

ويشكو إلى العميد الجديد "دانلوب" مستشار المعارف وغيره من مستشارى الانجليز، ويوصى "غورست" بالعناية بالتعليم وبأمور أخرى فيها صلاح البلد .

وهى قصيدة بليغة الشعر تطابق مقتضى الحال، تمدد فيها لباقة الشاعر مساوئ الانجليز فى معرض الشكوى اليهم .

*
* *

ومن سياسيات حافظ قصيدتان أنشدهما فى حفلتين أول السنة الهجرية عدد فيهما ما مر بمصر والبلاد والعربية والأقطار الإسلامية من خير وشر وذكر العام المنصرم بحسناته وسيئاته .

وقد شهدت إحدى الحفلتين، وتلكم أول ما شهدت من حفلات سياسية أو أدبية، وقد خبرت يومئذ تأثير حافظ فى الناشئة بشعره الحماسى،

وإنشاده الرائع ، وقد حفظت كثيرا من أبيات القصيدة التى أنشدها يومئذ ، وما زلت أنشدها وأكررها ، وهى القصيدة التى أولها :

لى فيك حين بدا سناك وأشرقا ... أمل سألت الله أن يتحققا
أشرق علينا بالسعود ولا تكن ... كأخيك مشئوم المنازل أخرقا
قد كان جراح النفوس فداوها ... مما بها وكن الطبيب موفقا
هللت حين لمحت نور جبينه ... ورجوت فيه الخير حين تألقا
فنأى بجانبه وخص بنحسه ... مصرا وأسرف فى النحوس وأغرقا

وفيه ينصح شباب مصر بالجد فى التعليم ، ويوصيهم بالتعاضد والعمل لخير الوطن والإقدام على كل عظيمة .

وهاتان القصيدتان الحوليتان دليل على تتبع الشاعر للحوادث ، وعنايته بالتنبيه عليها ، والاستفادة منها ، والاعتبار بها .

« بعد ثورة سنة ١٩١٩ »

ويختلف شعر حافظ بعد ثورة سنة ١٩١٩ ، يبرق فيه الأمل وينشرق الرجاء ويشيع فيه الاستبشار ، ويكثر فيه الفخر بمصر ، والاعتداد بماضيها وحاضرها ، والاعتزاز برجالها ، لقد تبدل يأسه رجاء ، وغمه فرحا ، وذله عزا ، وضعفه قوة .

استمع إليه فى قصيدة أنشدها سنة ١٩٢١ فى حفـــل لتكريم المرحوم عدلى يكن ، وقد قطع مفاوضة الإنجليز واستقال من الوزارة ، يقول الشاعر على لسان مصر :

إننى حرة كسرت قيودى رغم رقبى العدا وقطعت قدى
وتماثلت للشفاء وقـــد دانيـــــت حينى وهيأ القوم لحـدى

الى أن يقول :

إننـا عند فجر ليـــل طويل قد قطعناه بين سهد ووجد
غمرتنـا سود الأهاويل فيه والأمانىّ بين جزر ومد
وتجلى ضياؤه بعـــد لأى وهو رمز لعهدى المسترد
فاستبينوا قصد السبيل وجدوا فالمعـالى مخطوبة للجد

وكذلك تجد الشاعر فى قصيدة " عيـــد الاستقلال " التى نشرها فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٣ وجعل عنوانها " بين اليقظة والمنام " :

قم يا ابن مصر فأنت حر واستعد مجد الجـدود ولا تعد لمزاح
شمر وكافح فى الحياة فهـذه دنيـاك دار تنـاحر وكفاح
وإذا ألح عليك خطب لا تهن واضرب على الإلحاح بالإلحاح
وخض الحياة وإن تلاطم موجها خوض البحار رياضة السباح

ثم نجد حافظا يحمى على الإنجليز باللوم حينما تدخلوا فى شئون مصر ، وكشفوا عن حقيقة الاستقلال الذى زعموه . يقول فى أبيات نشرت فى ١١ مارس سنة ١٩٣٢ قبل وفاته بأشهر قليلة يخاطب المندوب السامى الإنجليزى :

ألم تخبر بنى التاميز عنا وقد بعثوك مندوبا أمينا
بأنا قد لمسنا الغدر لمسا واصبح ظننا فيكم يقينا
كشفنا عن نوایاكم فاستم وقد برح الخفاء محايدينا

وقد نشر فى ذلك الحين خمس قطع أخرى ينعى فيها على الإنجليز غدرهم وخداعهم ، يقول فى إحداها :

(قصر الدبارة) قد نقضت العهد نقض الغاضب
أخفيت ما أضمرته وأبنت ود الصاحب
الحرب أروح للنفوس من الحياة الكاذب

وهكذا ليث شاعرنا يجادل الإنجليز و يعدد مساوئهم ، و يطالبهم بالجلاء عن بلاده ، ولكن الشاعر قارب ، أحيانا ، ولاين وتودد . وأعظم ما نأخذه عليه قصيدة مدح بها السلطان حسينا ، ونصحه بالثقة بالإنجليز واستشارتهم

فيما ينو به وهى وهن وذلة، وإحدى زلاته ولا ريب. وأعوذ بالله من قوله للسلطان :

ووال القـــوم إنهم كرام ميـامين النقيبة أين حلوا
لهم ملك على التاميز أضحى ذراه على المعـالى تستهل
وليس كقومهم فى الغرب قوم من الأخلاق قـد نهلوا وعلوا
فإن صدقتهم صدقوك ودا وليس لهم إذا فتشت مثل .. الخ

و يلحق بهذه القصيدة العوراء قصيدة نظمها فى السنة نفسها سنة ١٩١٥ يخاطب فيها "مكماهون" المعتمد البريطانى و يقول للإنجليز :

أنـــتم أطبـاء الشعوب وأنبـــل الأقـــوام غايه
أنى حـللتم فى البـــلاد لـــكم من الإصـــلاح آيه
رسخت بنـاية مجـــدكم فـــوق الروية والهـــدايه
وعـــدلتم فملكتم الدنيـــــا وفى العـــدل الكفـايه

لم يقصر شاعرنا وطنيته وحماسة فى الذود عن أمته على القصائد الساسية بل أعرب عن حب أمته، وكلفه بها، ونقد أحوالها وأعمالها، و بصر بعيوبها وأرشد إلى صلاحها فى قصائد كثيرة فى موضوعات أخر، لا يدع فرصة إلا انتهزها، ولا يقوم مقاما إلا تذكر أمته .

فهو يحث أمته على طلب العلم و بلوغ الغاية فيه، ويدعو إلى بذل المال لإنشاء جامعة مصرية فى قصيدتين يقول فى إحداهما ، وقد أنشدها فى ٨ مايو سنة ١٩٠٨ :

حيا كم الله ، أحيوا العلم والأدبا ... إن تنشروا العلم ينشر فيكم العربا

ولا حياة لكم إلا بجامعة ... تكون أما لطلاب العلا وأبا

تبنى الرجال وتبنى كل شاهقة ... من المعالى وتبنى العزّ والغلبا

ضعوا القلوب أساسا لا أقول لكم ... ضعوا النضار فإنى أصغر الذهبا

وابنوا بأكبادكم سوراً لها ودعوا ... قيل العدو فإنى أعرف السببا

لا تقنطوا إن قرأتم ما يزوقه ... ذاك العميد ويرميكم به غضبا

بنى على الأفك أبراجا مشيدة ... فابنوا على الحق برجا ينطح الشهبا

وكان العميد البريطانى يقول : إن المصريين أحوج إلى الكتائب منهم إلى جامعة .

وكذلكم قصيدته فى احتفال مدرسة مصطفى كامل بتوزيع جوائزها (٣٠ نوفمبر سنة ١٩٠٦) يهيب فيها بالشرق أن يأخذ بأسباب العزة، ثم يوصى الناشئين أن يعملوا لخير مصر ، و يبشرهم بمستقبل كريم .

وفى حفل مدرسة البنات فى بورسعيد (٢٩ مايو سنة ١٩١٠) أنشد قصيدته التى مطلعها :

كم ذا يكابد عاشق ويلاقى ... فى حب مصر كثيرة العشاق

إنى لأحمل فى هواك صبابة ... يا مصر قد خرجت عن الأطواق

ويشيد بذكرى الأخلاق فيقول :

والعلم إن لم تكتنفه شمائل ... تعليه كان مطية الإخفاق

لا تحسبن العلم ينفع وحده ... ما لم يتوج ربه بخلاق

ثم يبين رذائل العلم الذى لا توجهه الأخلاق ، فيذكر العلماء والفقهاء والأدباء والأطباء والمهندسين ، ويأخذ عليهم عيوبهم غير متحرج ولا مداهن ، ثم يوصى بتربية النساء ، ويبين مكانة الأم فى الأمة .

*
* *

واستمع إليه فى حفلات غير مصرية كحفلات كلية البنات الأمريكية تجده يذكر ما بلغه الغربيون فى الحضارة ، ثم يتمنى أن تبلغ مصر شأوهم ويدعو أمته إلى الاحتذاء بهم . لا يشيد شاعرنا بمأثرة أو منقبة أو مفخرة

فى الغرب إلا دعا أمته إلى مثلها ، وتمنى أن تنالها . وهذه أبيات من قصيدته فى حفلة الكلية الأمريكية :

ليتنا نقتدى بكم أو نجاريـــكم عسى نسترد ما كان ضاعا
إن فينا لولا التخاذل أبطالا إذا ما هم استقلوا الـيراعا
وعقولا لولا الخمـول تولاها لفاضت غرابة وابتـداعا
ودعاة للخـير لو أنصفـوهم ملأوا الشرق عزة وامتنـاعا

وفى قصيدة أخرى فى حفلة أمريكية أيضا :

ليت شعرى متى أرى أرض مصر فى حمى الله تنبت الأبطالا
وأرى أهلها يبارونكم علما ووثبا إلى العـلا ونضالا
قد نفضنا عنا الكرى وابتدرنا فرص العيش وانتقلنا انتقالا . . الخ

*
* *

وقصائد أخر تشهد بدعوة شاعرنا البار أمته إلى الخير والبر ، وتبين كيف خفق قلبه بحب مصر ، وكيف وقف حياته ولسانه على إيقاظ أمته ودعوتها إلى العمل الصالح . اقرأ قصائده فى حفلات الجمعية الخيرية الإسلامية ، وملجأ الحرية ، وجمعية إعانة العميان ، وجمعية الطفل .

ولاتنس قصيدته فى نصرة اللغة العربية ، والدعوة إلى إحيائها وإعزازها .

*
* *

ويسلك الشاعر البر الكريم إلى مقصده مسالك فى قصائد ليست مظنة الدعوة إلى ما يدعو إليه الشاعر من المقاصد العظيمة والمطالب الكريمة ، فى قصائد رثاء ، فهذا الشاعر الذى شغل عقله وقلبه حب أمته والتأمل فى فلاحها ، والعمل لصلاحها ، يرى فى كل مقام ما يذكره بها .

رثى الشيخ محمد عبده ومصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وسعد زغلول ، وغيرهم من كبراء مصر ، فما نسى فى لوعة الحزن ، وشواغل الزمان أن يشيد بمصر ويفخر بها ، ويبسم لمستقبلها ، ويدعو أمته إلى السعى والإقدام . وحسبنا من شواهد كثيرة هذه الأبيات فى رثاء مصطفى كامل ، يقول فى حفلة للذكرى الأولى لوفاته :

يا أيها النشء سيروا فى طريقته ... وثابروا رضى الأعداء أو نقموا
فكلكم مصطفى لو سار سيرته ... وكلكم كامل لو جازه السأم
قد كان لاوانياً يوما ولا وكلاً ... يستقبل الخطب بسّاما ويقتحم

ويقول فى رثاء محمد فريد :

قل لصب (١) النيل إن لاقيته ... فى جوار الدائم الفرد الصمد
إن مصرا لا تنى عن قصدها ... رغم ما تلقى ، وإن طال الأمد

---

(١) صب النيل : مصطفى كامل .

جئت عنها أحمل البشرى إلى أول البانين فى هذا البلد
فاسترح واهنأ ونم فى غبطة قد بذرت الحب والشعب حصد

ثم يقول فى رثاء سعد زغلول يخاطب الانجليز :

قد ملكتم فمَ السبيل علينا وفتحتم لكل شعواء بابا
وأتيتم بالحائمات ترامى تحمل الموت جاثما والخرابا
وملأتم جوانب النيل وعدا ووعيدا ورحمة وعذابا
هل ظفرتم منا بقلب أبيٍ أو رأيتم منا إليكم مثابا
لا تقولوا خلا العرين ففيه ألف ليث إذا العرين أهابا
فاجمعوا كيدكم وروعوا حماها إن عند العرين أُسدا غضابا

*
* *

قال بعض الأدباء إن حافظا صمت عن الشعر منذ نال منصبا فى دار الكتب سنة ١٩١١ ، وهذه دعوى يخجلها الدليل ، بل ينقضها الواقع . فإن أريد أنه صمت عن شعر السياسة والوطنية فهذا حق ، ولكن إلى سنة ١٩١٩ حين حقق أمله ، وهاج شعوره ثورة أمته ، فكان له بعدها قصائد تعرب عن جذله وعظم أمله ، وتبلغ من الوطنية والحماسة ما لم تبلغه قصائده الأولى .

وإن أريد أنه صمت عن ضروب الشعر عامة ، فما يقول هـذا إلا من فاته أن يقرأ ديوان حافظ ، ويتعرف تاريخ القصائد فيه .

*
* *

شغل حافظ بأحداث مصر ، وعنى بما أحاط به من شئونها ، ولكنه دل على عناية بالوطن العربى كله واعتزازه به كلما ظفر بفرصة للكلام عن هذا الوطن .

ففى قصيدة أنشدها فى لبنان يقول :

لى موطن فى ربوع النيل أعظمه ... ولى هنا فى حماكم موطن ثان
إنى رأيت على أهرامها حللا ... من الجلال أراها فوق لبنان

إلى أن يقول :

النيل وهو إلى الأردنّ فى شغف ... يهدى إلى بردى أشواق ولهان
وفى العراق به وجد بدجلته ... وبالفرات وتحنان لسيحان

وفى قصيدة أنشدها فى تكريم شوقى يقول :

فغن ربوع النيل واعطف بنظرة ... ء
ولا تنس نجدا إنها منبت الهوى ... ومرعى المها من سارحات ورتّع
وحى ذرا لبنان واجعل لتونس ... نصيبا من السلوى وقسم ووزع

وأنشد فى حفل لتكريمه فى ٢٥ مارس سنة ١٩٠٨ قصيدة مطلعها :

لمصر أم لربوع الشام تنتسب ... هنا العلا وهناك المجد والحسب

وكان للشرق لا زالت ربوعهما ... قلب الهلال عليها خافق يجب

خدران للضاد لم تهتك ستورهما ... ولا تحول من مغناهما الأدب

أم اللغات غداة الفخر أمهما ... وإن سألت عن الآباء فالعرب

إلى أن يقول :

هذى يدى عن بنى مصر تصافحكم ... فصافحوها تصافح نفسها العرب

وهكذا نرى شاعرنا كلما سنحت فرصته ذكر الوطن العربى ، وفخر بقومية العرب ، واعتز بلغته العربية .

* * *

وأحيانا يعنى حافظ بالأمم الإسلامية كلها ، أو يعنى بالوطن الإسلامى الأوسع . وأكثر ما نجد هذا فى قصائده فى حوادث العثمانيين ، والسلطان عبد الحميد ، حينما كانت الدولة العثمانية تعتز بخلافة المسلمين ، وكان المسلمون يفزعون إليها فى محنتهم . و يفزعون لها فى محنها .

وفى ديوانه قصائد كثيرة فى هذه الشئون .

خاتمـــة

و بعد فذلكم محمد حافظ فى شعره الوطنى ، وحماسته الوطنية . لقد كان ترجمان أمته تلك السنين الطوال فلقّب شاعر النيل .

و إنه فى جمهرة شعره صريخ حرجرئ يعرب عن آمال أمته وآلامها ، ويذكى عاطفتها ويهيج حماستها ، ويدعوها إلى الخطة الكريمة ، والسيرة المثلى غير واهن ولا هياب .

وقد بدا له أحيانا قليلة ما بدا ، فلان وتودد وأوهن . ولا ندرى أكانت هذه سياسة خاطئة أم غفوة طارئة . ولعله أراد حمل نفسه على انصاف العدو كما يعتقد ، أو رام إعطاء الشيطان حقه كما يقول الإنجليز أنفسهم .

*
* *

ثم هو فى شعره هذا الوطنى الحماسى — و بعض موضوعاته ليس مجالا للشعر نسيحا ، ولا قرارا للخيال واسعا — لم يقصر فى إدراك المعانى وتصويرها ، وصوغ الكلم المبين عنها الملائم لها .

و إن يكن فى بعض المعانى ابتذال ، وفى بعض الألفاظ نبو ، وفى بعض العبارات قلق ، فأولئك القليل النادر لا يخل بالكثير الغالب ، و إنه الوهن الذى يعرض للقوى ، والفتور الذى يطرأ على المجد ، والكبوة يكبوها الجواد .

شاعرنا فى جملة شعره قيم المعانى ، واسع المجال ، جزل الألفاظ ، رصين السبك ، حسن الجرس ، جيد النغم ، واف بحق الوزن والقافية . وحسبه هذا وكفى .

إن حافظا أعرب عن آمال مصر وآلامها سنين كثيرة فأحسن الإعراب وبلغ من نفوس سامعيه الغاية ، ثم ترك للأجيال ثروة من التاريخ والحماسة والأخلاق ، ودعوة إلى الكرامة والعزة والعمل الدائب والسيرة الصالحة ، كل أولئك فى شعر رصين ، بليغ ، جدير أن يبقى على مر الزمان يتغنى به المنشء ما تعاقب الملوان .

رحم الله حافظا وجزاه عن أمته خير الجزاء ؛

ذكريات عن حافظ ومجالسه

للأستاذ عبد الرحمن صدقي

يقتضيني واجب الأمانة لكم ، وإيثار السلامة لى ، أن أقدم بين يدى كلمتى هذه ما جرت به العادة من الاعتذار ، لقلة ما تشتمل عليه جعبتى المتواضعة من ذكريات ، عن الشاعر المحتفل بذكراه ، ولكن شفيعى عندكم وعند نفسى ، فى التعرض للكلام فى هذا المقام أن الحكم فى تقويم الذكريات ليس هو القيمة العددية على الدوام .

كنت فى شبابى وحداثة أمرى ، حريصا مثل الكثيرين غيرى على شهود المحافل التى يلقى فيها شاعر النيل ما ينظمه فى المناسبات العامة من القصائد الرنانة ، وأذكر من هذه المناسبات الحفلة التكريمية العظمى التى أقيمت للدكتورين صاحبى المستطف احتفالا بمرور خمسين عاما على كبرى المجلات العلمية وقتئذ ، وذلك فى أول يونيه سنة ١٩٢٦ بدار الأوبرا ، وقد تعاقب على موقف الخطابة بالمسرح الخطباء يعددون مآثر الشيخين العالمين ، ويذيعون مناقبهما ، وينوهون بمساعيهما ، ثم قام شاعرنا حافظ ابراهيم حين آذنت نوبته عالى الجبهة منحسرها ، كبير الهامة ، فارع

القامة ، مع بسطة فى الجسم مأنوسة غير مرهوبة ، وتطلع لحظة إلى جموع السامعين الحاشدة ، وقد انطبعت على طلعته السمراء الحازمة أمارات العزم والثقة بأنه بالغ من القوم ما هو مقدره عندهم من التجاوب والتلبية ، وسرعان ما التفت حافظ فى حركة تمثيلية رصينة وإيماءة لطيفة إلى حيث المحتفل بهما ، ثم استدل على الفور مستقبلا جمهوره ، وهو يردد بصوته العميق الممتلىء الفخم مطلع القصيدة :

شيخان قد خبرا الوجود وأدركا ... ما فيه من علل ومن أسبـــاب
واستبطنا الأشياء حتى طالعـــا ... وجه الحقيقة من وراء نقـاب

وكان السامعون يقابلون كل شطر ، بل كل لفظ ، بما هو أهله من حسن القبول والإصغاء ، واغتنم حافظ ما قوبل به المطلع من بوادر التصفيق وهتاف الاستحسان ، فعاد — كما هو مألوف عادته — إلى ترجيع ما أنشده مرة أخرى على أسماع السامعين تعميقا لأثره ، وتمكينا لوقعه ، مع وصل ما انقطع من المعنى السابق بما هو لاحق احتفاظا بوحدة السياق :

شيخان قد خبرا الوجود وأدركا ... ما فيه من علل ومن أسبـــاب
واستبطنا الأشياء حتى طالعـــا ... وجه الحقيقة من وراء نقـــاب
خمسون عاما فى الجهـاد كلاهما ... شاكى اليراعة طاهر الجلباب
لا تعجبوا أن خضبـــا قلميهما ... وبياض شيبهما بغير خضاب

هنا لم يتمالك السامعون أنفسهم ، بل كأنهم تنبهوا الساعة فقط إلى ما نبههم إليه الشاعر من العجب ، فهذه هامة الشيخين الكاتبين ، وقد جالها بياض الشيب فلم يخضباه بالسواد ، على حين أنهما لا يفتآن يخضبان القلم الذى فى أيديهما بالمداد . هنا أمام هـذه المقابلة الشعرية التى تكلف بها الشاعر ما تكلف من الطلب ، لم يتمالك السامعون أنفسهم من الطرب فقد زلزلت بهم مقاعدهم ، افرط ما اهتزت مشاعرهم وجوارحهم ، وهللت جموعهم تهليل الاستحسان والاستجادة ، وانطلقت الأكف بالتصفيق ، وارتفعت الأصوات بالاستعادة ، ولا أحسبنى ملكت نفسى وقتئذ عن مشاركة الحاضرين فى غمرة حماستهم ، وهزة طربهم ونشوة إعجابهم وعجبهم .

واستمرت الحال فى استجابة السامعين وحماستهم على هذا المنوال ، إلى أن فرغ شاعرنا من إنشاد قصيدته .

ولما انفض الاحتفال وصرنا خارج الدار ، تلقانا باعة الصحف بما قيل فى الحفلة مسجلا مطبوعا فبادرت الى شراء نسخة من الصحيفة أقتنيها وما إن صرت فى بيتى واحتوتنى غرفتى ، حتى أقبلت على قصيدة حافظ خاليا ، وقد فرغت لها أراجعها للاستزادة من المتاع بها . وأقرر مخلصا أننى استمتعت بها ، أو على الأصح بأكثر أبياتها ، ولكننى لا أكتمكم فى الوقت نفسه أنى كنت أحيانا أتوقف عند هذا وذلك من الأبيات التى استولى

بها حافظ منذ هنيهة على أسماعنا ولعب بمشاعرنا ، واختلب عقولنا ، فإذا من بين هذه الأبيات التى أنزلها علينا وهو ينشدها منزلة الآيات ، ما لا يمكن عده من أجود شعره ، وأسوق مثلا على ذلك قوله يشبه القلم فى كف المحتفل بهما بالشهاب الساطع المنقض وهو فى يده — أى يد حافظ — أشبه بعود الكبريت .

إنى نظرت الى اليراعة فى يدى ... فحسبتها فى القدر عود ثقاب
ونظرتها تنقض من كفيهما ... فوق الطروس فخلتها كشهاب
يزهى مدبجنا برمح واحد ... وأراهما لا يزهيان بغاب

هذه المقارنة بين حافظ كما سمعته ، وحافظ كما قرأته ، أفادتنى معرفة الشاعر فى حقيقة أمره ، وأسلمتنى مفتاح سره ، وبفضل هذه المعرفة بقيت حتى اليوم على تقديرى له وحبى إياه .

لقد أفدت من هذه المقارنة بين حافظ كما سمعته ، وحافظ كما قرأته إن المقياس الحرى بأن يؤخذ به ويحتكم اليه فى تقدير شاعر النيل ، هو مقياس الشعر الخطابى ، فقد كان حافظ ابراهيم ينظم قصائده للإنشاد . ومما يروى عنه أنه كان فى حال نظمه للقصائد يرفع عقيرته بما يرد على خاطره تحريا للأثر الخطابى . فهو مطلبه الذى لم يكن يبرح ماثلا نصب عينيه إذ كان لا يخفى عليه أن هذا قبل غيره هو موطن قوته ، وأن فيه سر فضله وميزته .

والشعر الخطابى كالشعر التمثيلى نجد فيهما معظم الأحيان أن الذى لا يروعنا عند النظر والقراءة هو بعينه ما يقع فى أسماعنا أحسن الوقع عند الإلقاء التمثيلى والخطابة . وعلى هذه الصفة ، وفى هـذا الحد ، لم يبرح حافظ بعد نصف قرن من الزمان فى موضعه الرفيع حيث كان فى تاريخ الشعر العربى المعاصر .

ولقد رأينا كيف كانت هذه الصفة الخطابية فى شعر حافظ الشاعر تجد من يوفيهـا غاية حقها من الإنشاد الساحر فى " حافظ الخطيب " ومن ثمـة كان لشعره فى سامعيه من المعاصرين ذلك الأثر الكبير الذى لايدانيه أثر .

ويحضرنى فى هذا المقام ما كان يدور بين الأستاذ العقاد "وحافظ" حين يلقاه بعد تلك الحفلات العامة التى كان ينشد فيها قصائده الرنانة ، فقد كان يداعبه العقاد بقوله :

" ألا ترى أنى صدقتك النصح ياحافظ حين قلت لك مرات ، أن تصدر ديوان شعرك — حين تصدره — فى اسطوانات .

وأدع هذه الصورة من ذكرياتى عن المحافل العامة إلى ذكرى خاصة هى بطبيعة الحال صورة لقائى الأول للشاعر الكبير وإذا كنت أعرضها أول ما أعرض فلأنها صورة لطريقته فى ملاقاة من يلقاهم أول ما يلقاهم .

كنت وصديق لى منحدرين فى شارع محمد على فلما صرنا تجاه مقهى دار الكتب وكان يعرف وقتئذ بالقهوة العثمانية ، اندفع صديقى ودفعنى معه ، فإذا بنا نواجه شاعر النيل حافظ ابراهيم واقفا على أهبة الانصراف من المقهى . فحياه الصديق ثم قدمنى ، ولكن حافظ لم يتهلل فقال لقد ذكرتك الليلة البارحة ، وهـذا أنت . فتهلل الصديق معقبا على الفور كالعادة "خير إن شاء الله خير" قال حافظ " كنت أقرأ الليلة البارحة فى رسالة الغفران ما جاء فى صفة جهنم فذكرتك" .

" وماذا يجعلك تذكرنى فى هـذا الوضع بالذات ؟ " فظهر الجد على وجه حافظ وفى نبرة صوته : " هو الحق أقوله لك ، لقد أعيانى تصور زبانية الجحيم كالعمالين ، فى أيديهم مقامع من الحديد يتأهبون هـذه الأهبة المهولة ، ويتكفون هذا الوقود العظيم ، لتعذيب من كان مثلك فى صغر الحجم وقصر القامة وخفة الوزن" .

— " ألا تكف عن هزلك ياحافظ بك ؟ ألا تكف عن هزلك " ؟

— " ما أنا بهازل فى هذه المرة يابنى ، أنا مشفق عليك ، ولو كان أمرك يومئذ يوكل إلى ، لكان حسبك فى جهنم موقد من مواقد الكحول الصغيرة ، "اسبرتو" تتقلب من ذبالته على نار لينة يسيرة وقبل أن يراجعه زميلى بكلمة أشار حافظ إلى وسأله : "أترى زميلك من أصدقاء العقاد؟" .

وما كاد يسمع الرد بالإيجاب ، حتى التفت إلىّ قائلا "ما أظنك إلا كنت أكثر شبابا قبل أن تعرفه ، إن العقاد يعقد على الناس الحياة ، إنه لا يدع شيئا على حاله فى الشعر وفى مقاييس النقد وفى منازع الفكر وفى سائر الأمور . نصيحتى إليك أن تنجو بحياتك منه" .

ثم تركنا غتة رافعا يده بالتحية ، وانطلق ، فما عرفت من مشيته إن كان معجلا أو متثاقلا فهو يمشى متهدل الجسم ، لم يكد يتحرك للسير ، حتى أخذ يحرك ذراعيه كالمجدافين ، إلى أن بلغ مركبة من مراكب الخيل المأجورة ، توقفت تجاه المقهى فى انتظاره .

ولقد شهدت بعدها أكثر من مجلس لحافظ إبراهيم ، وما شهدته منها مضافا اليه ما سمعته عنها يكفى للدلالة بأجلى بيان على ما اجتمع لشاعرنا من فضائل النديم وشمائله كما نمثلها من مطالعتنا فى تاريخ الأدب العربى القديم .

فهو لم يكن الأديب الكثير المحفوظ من طرائف الأدب ، المزدحم الصدر بها ، الحاضر الرواية لها فحسب ، بل كان إلى ذلك حاضر البديهة سريع الخاطر كثير الدعابة بارع النكتة مع لطافة روح وخفة ظل ، وبهذا الاجتماع بين ملكتى الجد والفكاهة تهيأت لحافظ عدة النجاح فى المجالس ، وهذه العدة كذلك لا بد معها من حسن الذوق ولطف السياسة والتدبير

حتى لا يقع شيء من الجد أو الهزل فى غير موقعه من حيث مناسبته لمقتضى الحال من صفة المجلس وثقافة أهله ، والروح الغالبة عليه ، ومواتاة الظروف ، وقيام البواعث الداعية واستعداد النفوس المتلبية . جميع ذلك مطلوب فى النديم . وهنا موضع الامتياز فى حافظ ، وسر نجاحه فى المجالس ، إذ كان حافظ وقتئذ يغشى فى الآونة بعد الأخرى عدة من المجالس لا تكاد تربط بينها رابطة ، فمن مشايخ الأزهر العلماء إلى أصحاب الأطيان من الأعيان ، ومن قادة الأحزاب والساسة الزعماء إلى موظفى دار الكتب ثم إلى جانب هؤلاء كان حافظ شديد الاحتفال بمجالس أرباب الصحف لاتصالها بالرأى العام ، وقد كان المتغلبون عليها يومئذ إخوانا لنا فى العروبة من نوابغ الشام .

على أن أحب المجالس كلها إلى نفسه وأحطاها ، فإنه ما برح من قبل ومن بعد مجلس الظرفاء من أهل الأدب ينادمهم ويسير معهم ، ويساجلهم الأشعار ، ويروى لهم ويسمع منهم النوادر والأخبار ، ويتبادلون الدعابة ويتراشقون بالنكات ، ويتبارون فى اختراع الأضاحيك والمفارقات .

بيد أن حافظا كان يكره من مجالس الشعراء والنقاد — سواء من مدرسته أو من غير مدرسته — ما يقع فيها أحيانا من التنويه بشاعر من المعاصرين غيره ، أو التعرض لذكر ما يقال بالحق أو بالباطل من نقد هـذا البيت

أو ذاك فى شعره ، وذلك فضلا عما كانت تثور ثوائره فى الحين بعد الحين بين الشعراء المتنافسين ، كما هو الشأن بين أبناء كل فن .

من ذلك ثورة شاعرنا حافظ وما كان من إطلاق اسانه بالتهمة والتهديد والنقمة على معاصره "عبدالحليم المصرى" لمعارضته لقصيدته الأخيرة فى سيرة عمر بقصيدة فى سيرة أبى بكر . ولقد كان جلساء حافظ يعرفون هذه الغيرة منه على مكانته وعلى شعره ، فكانوا يتحينون مثل هـذه الفرص لإثارته وكانوا فى ذلك دائما من المفلحين ، ولكن نجاحهم كان فى معظم الأمر إلى حين ، ويشهد على ذلك قصته مع أكثر من زميل شاعر .

تولى بعض أولاد الحلال إبلاغ حافظ فى لهجة المشفقين المنـكرين كيف أن صديقه أحمد نسيم سطا على أبيات مما نظمه أخيرا . وكان "نسيم" قد أخذ معناها وتفنن وصوغها حتى فتن السامعين عن أصلها . ولم يزل أولاد الحلال متحلقين حول حافظ فى المقهى ، يقولون ويعيدون القول فى هذا الصديق الذى يواخيه ظاهرا ثم لا يتورع من السطو عليه على أخيه الذى يكبره سنا ومقاما ، وكأنه يأبى إلا أن يرثه حيا ، وهكذا مضوا يتبارون فى التعقيب تلو التعقيب مع شتى الحواشى والإضافات حتى أثاروا حافظا وأوغروا صدره ، وبينما هم كذلك إذ أقبل أحمد نسيم وألقى عليهم التحية ، فلم يمهله حافظ وابتدره غاضبا يسائله ، كيف جاز

لك أن تغير على قصيدتى الأخيرة تتهب خير معانيها وتدعيه لنفسك ؟ كيف ؟ تخرجنى من حوزتى وترثنى فى حياتى ؟ وكان أحمد نسيم هادئ الطبع لبقا أديبا ، فأجاب على الفور " يا حافظ ألا ترى الصغير إذا ضاقت به الحال يميل على عمه الغنى الوافر المال؟ فماذا فعل ابن أخيك غير هذا ياعمى حافظ "؟

ولم يرد حافظ ، بل أشاح بوجهه المتجهم الغاضب يصفق ، فأتى غلام المقهى فى الحال ، وإذا شاعرنا المتجهم الغاضب يلتفت إلى أحمد نسيم يسأله فى صوته الأجش الطيب " تشرب ايه ياواد ؟ " بيد أن هذا وغير هذا جميعه مما كان بينه وبين الشعراء كافة ، لم يكن يشغل نفسه قدر ما كان يشغلها موقفه من شوقى وموقف شوقى منه ، ونقتصر من ذكريات هذه المواقف على مثال واحد :

كتب الدكتور هيكل مقالا فى السياسة الأسبوعية بعنوان "شوقى وحافظ" وفى هذا المقال قدم شوقيا على حافظ ، وقضى له بالتميز والمكانة العليا فلم يسلم الناقد الكبير من العتب والملامة ، ولكن اللائم المستطار الغضب لم يكن حافظا ، كما كان المنظور المرتقب ، بل شوقى نفسه . فقد كره شوقى أن يقرن اسم شاعر معاصر باسمه ولو فى مقام تميزه وتفضيله متمثلا فى ذلك قول الشاعر القديم :

ألم تر أن السيف يصغر قدره إذا قيل إن السيف خير من العصا

وفى ذلك الشأن يروى الأستاذ الطناحى فى مقال له إنه زار حافظ ابراهيم وقتئذ بداره بالجيزة، وكان الشاعر فى شرفته المطلة على مروج يخترقها جدول ماء ، وهو فى لبسة المفضل يرتدى جلبابا أبيض عليه عباءة بلون البن ، وفى يده عصا يهزها يمنة ويسرة أثناء حديثه هزا خفيفا ويضرب الأرض بها إذا تحمس أو احتد ، فأخذ حافظ يحدث جلساءه فى فكاهة وألم .

" اسمعوا يا إخوان . . . إن أمير الشعراء قد غضب لقول هيكل فى مقاله " شوقى وحافظ " ولم يعجبه الجمع بين اسمى واسمه ، ألم يسمع الناس يقولون " زفتى وميت غمر " فهل سمعتم أن زفتى غضبت أو ان ميت غمر احتجت ؟ ألم يتكرر على سمعه قول الناس " سميط وجبنة " " وخيار وفاقوس " و " عسل وبصل " ثم تضاحك حافظ وقال : " أما من يكون العسل ، ومن يكون البصل، فتلك مسألة أخرى " .

وهنا حاول بعض الزوار أن ينال من شعر شوقى فنفر حافظ من ذلك نفرة قوية وقال: إنه لا يرضى لهم أن يكونوا خبثاء أو جهلاء، وهو لا ينكر على شوقى حقه فى الامتياز والتقدم ، ولكن يكره منه هذه المواقف .

ولقد ظل حافظ حياته يترضى شوقى ايتخذه فى أول الأمر وسيلة الى بلوغ الجاه الرسمى مثله . وكان يتعود فى مطالع مدائحه الرسمية منذ

عام ١٩٠١ أن يذكر شوقى ، ويثنى عليه ، بما يطمئنه على مكانته واستعلاءه على منافسة ، فلم يغنه ذلك شيئا ، ولم يقربه خطوة مما أراد .

فلما مات الإمام المفتى ، واشتد بحافظ ضيقه وموجدته على شوقى أعلن ثورته فى حملة كتابية للمرة الأولى والأخيرة فى كتابه "ليالى سطيح" وقد جعل ختام هذه الحملة ما أجراه على لسان صاحبه فى ذلك الكتاب نفسه إذ يقول عن شوقى وموقف حافظ منه :

" فهو عميد رجال هذه الدولة ، فلا يكن مثلك و إياه كمثل البحترى وذئبه الذى يقول فيه :

كلانا بها ذئب يحدث نفسه بصاحبه والجد يتعسه الجد

ولكن حافظا سرعان ما عاد الى الموادعة ، ثم لم يلبث قليلا بعدها حتى جاوز المسالمة الى التسليم ، ولم يمن هذا بمانع حافظا حين يخلو إلى خاصة خاصته أن يرفه عن نفسه كلما ساءه شىء من شوقى بنكتة ينال بها من شخصه ، أو معارضة هزلية ينال بها من شعره ، ومن ذلك ما يروى عن حافظ حين نظم أمير الشعراء فى وصف حفلة راقصة فى القصر مقطوعته التى مطلعها

مال واحتجب

فيقال إن حافظا فى أثناء نزهة له مع صديقه البشرى بجزيرة الروضة قد جعل وصديقه يتناوبان القول فى معارضة هذه المقطوعة على جهة الهزل فإذا المطلع :

شال وانخبـــط وادعى العبط
قـل لهـاجرى يبلع الزلـط

حتى بلغ هو وصديقه من ذلك نحو الستين بيتا . ويعلم أصدقاء حافظ أن من عاداته إذا نقم على أحد لم يدع مجلسا من المجالس إلا روى عنه النوادر ، والحق أنه كان يتخير النوادر الواقعة فعلا مع التزيد فيها بما يخرجها مخرج الهزل حتى تشيع من قبيل الأضاحيك فينال بها من خصمه ، ومن هذا القبيل ما كان يرويه عن بخيل من هؤلاء ، فقد زعم حافظ فى حكايته عنه أنه كان يشترى الدجاجة ثم ينفخها بمنفاخ الدراجة ويقدمها إلى أهل بيته على أنها ديك رومى .

ولئن كان من بين هـذه النوادر مالم يصدر أصلا عمن يلصقها حافظ بهم وينسبها اليهم ، فإن عذر حافظ وشفيعه أنها كانت جديرة بأن تصدر عنهم لموافقتها طباعهم ، واتساقها مع سائر فعالهم ، وشأن حافظ فى هذا شأن الفنان الأصيل إذا فاته الحق الواقعى ، فان يفوته الحق الفنى ثم إن حافظا كان بعيدا بطبعه وسلامة قلبه وطيبة نفسه عن الدس الذى

لا يعرفه فى كثير أو قليل ، ومن ثمة كان جهده فى خصوماته كلها من هذا القبيل .

بيد أن حافظا كان كسائر المطبوعين على روح الدعابة لا يكاد يكون له سلطان عليها ، فهو يتناول برسومه الهازلة ولفتاته الفكهة ونكاته عامة خصومه وأصدقاءه ، لا فارق إلا فى تلك المسحة من حزازة الخصومة مع الترفع عن الحقد .

فهو يتناول بالدعابة صديقه الحميم الشيخ عبد العزيز البشرى ، فيخلع عليه صورة شهود المحاكم الشرعية كما يتمثلون قياما بأبوابها على أهبة الحلف على الدوام ، وكان سبيل حافظ إلى ذلك أن يصمد فيروى خبرا مصنوعا لايجوز قبوله على السامعين ، ثم يلتفت حواليه كالباحث ويقول : "ياخسارة لو أن الأستاذ البشرى هنا لكان أقسم لكم" .

ويروى حافظ فى هذا المعنى نوادر يتفنن فى إبداعها . ومن ذلك مايزعمه من أن الشيخ البشرى كان حاضرا فى إحدى القضايا ، وكان الشهود يتقدمون بين يدى المحكمة شاهدا بعد شاهد يدلى كل منهم فى القضية بشهادته بعد أن يقسم اليمين ، ثم اتفق أن كررت المحكمة على أحد الشهود أن يؤدى القسم فلم يبادر ، فإذا الشيخ البشرى ينبعث من مجلسه قائلا فى لهجة المتحمس "تسمح لى المحكمة أن أحلف نيابة عنه" .

وهيهات أن يسلم حافظ من دعابة صديقه الأستاذ البشرى وهو من عرفنا دقة ملاحظة وذلاقة لسان ، وعلو طبقة فى البيان ، مع طول الباع فى النكتة ، وكان الإثنان حافظ والبشرى إذا اجتمعا فى مجلس تباريا كفرسى رهان ، فأصبح المجلس بهما قطعة من الجنان ، من فرط ما يدخلانه على النفوس من البهجة والأنس والسرور .

ومن أظهر المفارقات فى حافظ أنه على قلة حظه — مثل سقراط — من ملاحة الصورة ووسامة الطلعة ، كان شديد الاعجاب والاحتفال — مثل سقراط — بمن خصتهم الطبيعة بالحسن ، وأفرغتهم فى قالب الجمال . وكان احتفاله بالجمال لا يعدله إلا نفوره من القبح وكراهته له ، وليس هذا بالغريب ولا سيما من شاعر ، ولكن الغريب ، على حد تعبير الأستاذ البشرى ، هو أنه كان يجابه بذلك الكره مجابهة من لا يتقى القول ولا يتحرج فكان لا يطلع عليه دميم الخلقة غير مستوى معارف الوجه إلا قال له "يافتى ليس الوزر عليك بل على أبيك لأنه لم يؤد مهرا " .

وقد اغتنم الأستاذ البشرى ذات مرة أن كان المجلس مزدحما بالحاضرين فلم يكد يفرغ الضاحكون من ضحكهم لنكتة حافظ هذه حتى ارتفع صوت البشرى "اذا اطردت القاعدة ياحافظ ، فلاشك ان المرحوم والدك تزوج على الطريقة الإفرنجيـة ، فلم يدفع مهرا ، بل هو الذى أخذ " الدوطة "

وكانت مفاجأة لحافظ ابراهيم ولمن كانوا بالمجلس ، فانفجروا يضجون بالضحك مهللين " .

ومن المعلوم عن حافظ مترجم البؤساء أنه كان بائسا فى حداثته وفى عنفوان صباه وشبيبته ، ولكنه لم يتعلم من هذه التجربة القاسية المريرة الطويلة قيمة المال . بل لعله تعلمها فلم يكن يحبس المال عن ذوى الحاجة من الخلان ، وهو الذى ذاق ما ذاق من مرارة الحرمان ، وقد روى الرواة كثيرا عن حافظ ونوادر كرمه على الناس وعلى نفسه . وهم يذكرون كيف كان حافظ فى هذه اللحظات يبدو كأنه من الوارثين أصحاب الملايين ، وقد يكون فى تلك اللحظة قد أتى على آخر مليم من مرتب الشهر كله ، ونحن لا نفشى سرا إذا ذكرنا أن حافظا كان كثير البر بزميل له منذ أيام الفاقة من الشعراء الظرفاء أهل النكتة ، ونعنى به إمام العبد ، وكان إمام يزعم للناس تبريرا لما يناله من إحسان حافظ اليه ، وبره به ، أنه صاحب الفضل الأول على حافظ لأنه هو الذى خلق منه شاعرا . وانتهى خبر ذلك الى حافظ فحفظها له حتى إذا جاء كعادته يلتمس عنده بعض المال أجابه بالعبارة المأثورة "أنا يامولاى كما خلقتنى " ثم اتفق أن طالت غيبة إمام فذهب حافظ يزوره ، ثم عاد إلى أصدقائه يقول : لو رأيتم البيت الذى يسكنه إمام ، فى حياتى ما رأيت ، ولا أحسبنى أرى بيتا مثله فى الضيق ، وقد سمعت أن الخفير يشكو كل ليلة من أنه كلما مر به وجد نفسه مضطرا للتوقف

عن المرور فينادى : يا إمام رجليك طالعه من الشباك ، ياأخى مش ضرورى تنام متمدد .

وهنا نرى لزاما علينا أن ننبه إلى أن حافظا فى مجالسته لأقرانه من الأصدقاء لم يكن يختلف كثيرا عن حافظ فى مجالسته لأهل السيادة والزعامة ويشهد على ذلك ما يحكى عنه حين دعى لمقابلة السلطان حسين كامل فى أزمة اعتلاله واختلال أعصابه ، فقد بلغ من انبساط حافظ فى الحديث أن علت قهقهته وأعقبتها قهقهة السلطان ، وسمع كبير الأمناء صوت حافظ الأجش وهو يقول "أبوك . . وجدك بضمير المفرد ، وفى غير ما تحفظ ولا كلفة فى الحضرة التى كانت وقتئذ الحضرة العلية مما يعد اجتراء على تقاليد ذلك الزمان .

وممن كان يتردد عليهم حافظ فى أيامه من الزعماء سعد زغلول ، فكان حافظ يزوره فى بيت الأمة فى القاهرة ، وكان سعد يزداد يوما بعد يوم ألفة له وأنسا بمجالسه فى أوقات الفراغ وانبساطا لحديثه ، واتفق ذات يوم أن احتجز سعد بعض رجاله للغداء على مائدته وكان حافظ من زواره ، فدعاه كذلك ، وكان بين الزوار بعض من يمت بواشجة الأرحام إلى سعد ولكنه متهم بميله إلى السراى ، وكان الخلاف معها على أشده ، بيد أنه لم يكن يستطاع فى حدود اللياقة تجنب دعوة هذا الضيف الزائر . وقد شاءت المصادفة أن يكون مجلس حافظ على المائدة فى مواجهته .

ولم يفلح حافظ كعادته فى إشاعة السرور فى المجلس ، فقد كان سعد متجهما على الرغم من تحامله وتجمله لأنه كان بين أمرين كلاهما مر شديد عليه ، وهما المصانعة أو نسبة الغفلة إليه ، ولم يغب عن حافظ سر ذلك ، فما هو إلا أن جاءت الحلوى حتى توجه بالخطاب إلى الضيف الثقيل الذى يواجهه ، وقال فى لهجة بريئة يسائله " ما رأيك فى هذه الحلوى ، قل الحق أليست أطيب مساغا وأصدق حلاوة من عيش السراى " فارتبك الرجل وغمغم مؤمنا ، واشترك فى التأمين الحاضرون وتشاغل بالضحك الفاهمون ، فزال عن سعد تجهمه وسرى عنه . ثم صار حافظ يدعى لزيارة سعد أثناء اصطيافه فى عزبته ، بمسجد وصيف ، وهنا كانت الزيارة أطول وأمتع فقد كان سعد يستبق زواره بطبيعة الحال للغداء ، ومن ثمة كان ينفسح لحافظ مجال النوادر والفكاهات يتناقلها الرواة مع اختلاف فى الروايات لا يعدو التفاصيل والجزئيات ، ونروى من ذلك زيارته لسعد فى صيف عام ١٩٢٦ مستفسرا عن صحته ، وقد كان أن استبقاه مع غيره من الزوار للغداء فلما فرغوا من الطعام جاء الخدم بأطباق الفاكهة من التفاح والكمثرى وكان هوى حافظ فى الكمثرى دون التفاح ، ولعل الضيوف لم يعرفوا ذلك عن حافظ ، أو لعلهم كانوا يعرفونه ولكنهم قصدوا إلى غيظه وإخراجه عن طوره ، فقد كان إقبالهم جميعا على الكمثرى ، على نحوٍ أشفق منه حافظ

على نفسه فرفع صوته يخاطب سعدا ، "ياسيدى الرئيس ، رجائى إليك وأنت أبلغ الخطباء أن تخطب هؤلاء القوم فى مزايا التفاح ؟ بيد أنه مع كثرة ما يروى من نوادر حافظ ، فإنها لا تعدل ما كان منه أثناء مقامه أياما مع الدكتور محجوب ثابت فى ضيافة سعد فى مسجد وصيف . ولقد كان مايجرى من غرائب النوادر والحكايات عنهما هناك يسرى على الفور إلى مجالس القطر كله فى مختلف الأرجاء . ومن المعلوم أن الدكتور محجوب ثابت كان وقتئذ متقدما فى السن ، وكان متشاغلا عن الطب بالخوض فى السياسة والأحداث الجارية فى مصر لذلك العهد . وكانت له عناية خاصة بالسودان ، وكان إذا تحدث فى السياسة خلط البعيد بالقريب ، وطوح بالحديث فى جوانب متفرقة شأن العليم الخبير بسياسة العالم كله . وكان ينطق فى كلامه العامى بالقاف . وكان همه الشاغل فى تلك الأيام الحصول على مقعد من مقاعد النواب فى البرلمان ثم تعيينه وزيرا مع ما يساوره من الأمل فى الزواج من حسناء من ذوى المادين .

ومن أشهر النوادر التى تروى فى هذا الشأن هذه واقعة : كان سعد زغلول مستجما فى منزله الريفى فى مسجد وصيف ، فوفد عليه فيمن وفدوا للزيارة والإقامة أياما الدكتور محجوب ، وحافظ إبراهيم وآخرون . فلما كان الصباح جلس سعد وصحبه إلى مائدة الإفطار ، وتخلف الدكتور محجوب ثابت وطال انتظارهم له ، ثم حضر فسئل عن سبب تأخره ، فأجاب بلهجته

المعهودة بأنه كان يحلم حلما وتعوق عن القيام حتى ينتهى الحلم ، فطلب منه سعد أن يقص عليهم الحلم ، فقال : "رأيتنى مقتعدا ثورا كبيرا وقد أخذت بقرنيه ، والثور يقفز بى سريعا ، ومن خلفه عدد كبير من الحمير" فقال سعد زغلول "فسر لنا هذا الحلم يا حافظ" وكان حافظ مشتهرا بالاعتقاد فى دلالات الأحلام فقال مفسرا : "أما الثور الذى يركبه الدكتور فهو كرسى يتبوأه فى مجلس النواب ، وأما أخذه بقرنيه وهو يقفز به فمعناه بلوغه إلى منصب الوزارة" فتساءل بعض الحاضرين : ولكن ، ما هذه الحمير التى تجرى وراءه ؟ فقال حافظ : "أولئك هم ناخبوه" وبعد الإفطار انتقل حافظ إلى حيث خلا بنفسه ، ونظم فى وصف الدكتور محجوب ثابت قصيدته المشهورة التى يقول فيها :

يرغى ويزبد بالقافات تحسبها ... قصف المدافع فى أفق البساتين

من كل قاف كأن الله صورها ... من مارج النار تصوير الشياطين

قد خصه الله بالقافات يعلكها ... واختص سبحانه بالكاف والنون

يغيب عنه الحجا حينا وتحضره ... حينا فيخلط مختلا بموزون

لا يأمن السامع المسكين وثبته ... من كردفان إلى أعلا فلسطين

بينا تراه ينادى الناس فى حلب ... إذا به يتحدى القوم فى الصين

ولم يكن ذاك عن طيش ولا خبل ... لكنها عبقريات الأساطين

ببيت ينسج أحلاما مذهبـــة تغنى تفاسيرها عن إبن سيرين
طورا وزيرا مشاعا فى وزارته يصرف الأمر فى كل الدواوين
وتارة زوج عطبـــول خدلجة حسناء تملك آلاف الفدادين
يعفى من المهر إكراما للحيـته وما أظلته من دنيـا ومن دين

ونحن لو تركنا عنان الكلام لهذه الذكريات لم نبلغ آخرها إلا بعـــد أيام فلا مندوحة الساعة من ختامها بذكرى — وإن تكن حزينة — من ذكريات الختام .

كانت الشيخوخة قد عجلت إلى حافظ قبـــل السنين ، فتوهم المرض وكثرت وساوسه ، وصار يراجع الأطبـاء والمتطببين ، ويلتمس الدواء فى كتب الأولين أمثال تذكرة داود الانطاكى ، وكتاب الرحمة فى الطب والحكمة .

ويذكر الشيخ البشرى عن حافظ أنه ما يلقاك إلا بشـــك علة طارئة وطالعك بشكاة جديدة ، وأنه ما سمع بعلة إلا أحس أعراضها ، ولا وقع على عقار من العقاقير إلا اتخذه وتداوى به .

ويروى من نوادره فى ذلك ، أن صديقا له لقيـــه مرة فى الطريق وهو منقبض النفس ، ومتربد الوجه فسأله : ما به ، فقال له : إن المصران الأعور عندى ملتهب ، فقال له صاحبـه : وبماذا تشعر ؟ فقال : أشعر

بوجع شديد هاهنا ، وأشار بيـــده إلى جنبه الأيسر ، فقال له : إن المصران الأعور إنما يكون فى الجنب الأيمن لا الأيسر ، فأجابه من فوره " يمكن أكون أنا ياسيدى أعور شمال".

وأكبر الظن أن حافظا كان يعانى داء بالمعدة ، وقد كان يقيم الحين بعد الحين على الحمية ، وقد ذكر ذلك آخر مرة لقيته فيها على مائدة منزله الصغير بضاحية حلوان .

ولا أحب أن أكتمكم أنى شاركت فى هـذه المـأدبة دون دعوة من صاحبها ، فقد كان المدعوون إليها الأساتذة : عباس العقاد و إبراهيم المـازنى وزميلا ثالثا ، فاتفق أن لقيتهم ظهرا فى صحيفة الأخبار التى كان يصدرها المرحوم أمين الرافعى ، فلما هممت بتوديعهم عند مصرفهم ذكروا انهم مدعوون للغداء عند حافظ ابراهيم ، وأبوا إلا اصطحابى معهم ، وكنت أحتج بأننى غير مدعو ، وهم يضحكون من هذا الحرص مؤكدين أنه تقليد غير معترف به ولا معمول برسمـه عند شاعرنا حافظ ، ومضيت معهم مغلوبا على أمرى ، وولجت بابه وأنا أتعثر خجـلا من قدومى عليه قدوم الواغل الطفيلى ، فاستقبلنى الرجل كما استقبلهم فى بشر طبيعى دون أن يتكلف لى مزيدا من الحفاوة ، مما أشعرنى حقيقة بأن القدوم عليه من غير دعوة أمر مألوف عادى ، ولم يكد يستقر بنا المقـام حتى التفت حافظ

إلى الزميل الذى لاأسميه ، وكان مستكرشا عظيم البطن منطلقه ، متكلفا للسمت والوقار فأخذ يعابثه تارة ، ثم يستطرد إلى الحديث فى موضوع عام ، ثم يعود إليه بالمداعبة تارة أخرى . ومن ذلك حديثه عن زعيمة من زعيمات الحركة النسائية السافرات لذلك العهد ، وهى مربية فاضلة لم يكن لها من الوسامة أدنى حظ ، فيروى مايحضره فى التمثيل لأوصافها من شعر العرب ، ثم يجعلها المسئولة عما كان من نفور الناس من الشعر مع كثرة ما قيل منه فى تأييد دعوة قاسم أمين إلى التحرير والمساواة بين المرأة والرجل ، وعندها يلتفت حافظ إلى زميلنا المستكرش البطن ويقبل عليه فى جد ليسأله : "ما أراك إلا من القائلين بالمساواة بين الرجل والمرأة" فإذا رد الزميل بالإيجاب قال حافظ : "ظاهر عليك لقد حمات عنها حملها" وتلك الغاية التى لا غاية بعدها فى المساواة بين الجنسين" .

ولا يزال حافظ يعابث الزميل من قريب ومن بعيد ، وكلما خشى جفوة القول خرج من التخصيص إلى التعميم ، حتى إذا أعدت المائدة دعانا إليها ، واتخذ مكانه فى مواجهة الزميل ، وجعل يغريه بالأكل ، ويشجعه على المزيد كلما فتر ، ويذكر له من كانت البطنة سبيلهم إلى الشهرة ثم حانت منه التفاتة إلى ناحيتى أخذ بعدها يلحظنى وأنا عاكف على هذه الألوان من الطعام الشهى ، فلم يلبث أن خلى عن الزميل البدين واتجه إلى بالقول مظهرا عجبه من كمية الطعام التى استوعبتها مع ماكنت عليه وقتئذ

من النحافة والهزال ، وجعل يردد هذا " والله أنت كالخزانة التى بها درج سرى ، أو مايسمونه بالدور المسروق، فى المنازل القديمة، ماذا تراك كنت فاعلا لو كنت محسوبا فى عداد المدعوين؟ "هلاذكرت ياأستاذ أنك مدعو من باطن مدعو " وكنا من هذا الذى يقوله حافظ لا نكف عن الضحك على المائدة، ولو أن غير حافظ قال بعض هذا القول لكان مستنكرا، ولكنه كان يقول هـذا وأكثر من هذا فى بساطة وطيبة يجعلان كلامه فكاهة خالصة تترك المتعرض لها أشد الحاضرين ضحكا منها وطربا لسماعها .

ومما يجدر بهذه المناسبة توكيده والتنويه به أن حافظا لم يشاركنا فى معظم ألوان الطعام لأنها كانت من المحظورات عليه بأمر الطبيب ، ولكن ما كان عليه من حب لها، وولع قديم بها حبب إليه تقديمها لأحبابه لما كان يجده فى نفسه من الارتياح والرضى كلما استطابوا طعمها حتى لكأنه هو الطاعم منها المستمتع بها .

وإذا ذكرنا أن الشائع عند عامة الناس هو عكس ذلك ، وضح لنا ما جبلت عليه نفس هـذا الرجل من الطيبة الطبيعية والمشاركة الإنسانية الى الحد الذى يعز مناله و يندر مثاله .

وإذا كان لنا أن نعرب عن أسفنا على شىء فى هذا المقام، فهو أن حافظ ابراهيم لم يعن بتسجيل ما كان له فى شأن الناس والمجتمع من تلك النظرات

والخواطر على صورة النكات والنوادر التى كان لا يفتأ ينثرها فى مجالسه ولعله غاب عن حافظ فى مغالاته بقدر أشعاره أن هنالك من النقد الفكاهى مما يدخل فى عداد الأدب غير الرخيص ، وأن الخلود كان نصيب الكاتب الأسبانى سرفانتيس من أجل تصويره الفكه للفارس دون كيشوت ، وكذلك كان خلود الكاتب الايرلندى سويفت فى حكايته لمغامرات السائح جليفر ، فضلا عن إعجابنا المتزايد بتلك الآية الساخرة التى خلفها لنا أبو العلاء المعرى فى رسالة الغفران ، على أننى ربما آثرت من فرط حبنا لحافظ أن ألصق الذنب هنا بعصر حافظ ، فقد شاءت أنانية أهله أن يستأثروا لمجالسهم بهذه الروح العذبة اللطيفة الفكهة ، وهكذا قضوا على الأجيال القادمة فى مستأنف الدهور ألا تتصل بهذه الروح فى فكاهتها الحلوة إلا عن طريق هذه التفاريق من الذكريات على ما بها من عجز وقصور .

دراسة تاريخية لشعر حافظ

للدكتور شوقي ضيف

كان طبيعيا أن تقيم لجنة الشعر فى المجلس الأعلى للآداب والفنون أثناء العيد الخامس للثورة مهرجانا عظيما لذكرى حافظ ابراهيم تمجيدا له ووفاء لما بذل من ذات نفسه وشعره فى نضال الاحتلال الإنكليزى ، فقد ظل حقبة متطاولة من حياته يرمى العدو الغاشم بسهام أبياته المصمية ، ذائدا عن الحرية ، ومصورا آلام الشعب وآماله وما يرنو إليه من حياة عزيزة كريمة .

وكأنما اختارته ربة الشعر ليدافع عن وطنه فى هذه الحقبة المظلمة من تاريخه ، وقد جمعت له كل الأسباب ، ليستشعر المحنة ، وليكون صوت مصر فى تلك الأيام البائسة ، والهاتف بخواطر روحها الموجع المحزون فقد أنبتته فى أسرة مصرية من أسر الشعب المتواضعة ، ولم تلبث أن حرمته من رعاية أبيه ، وهو يخطو على عتبة السنة الرابعة ، فكفله خاله ، وكان مهندس مبان ، ولم يكن على حظ من الغنى والثراء ، وإنما كان

موظفا بسيطا محدود الدخل ، يعيش عيشة كفاف ، فيها غير قليل من الشظف والبؤس والحرمان .

نشأ شاعرنا فى هذه البيئة المصرية المكدودة ، فذهب إلى الكتاب ثم إلى المدرسة فى القاهرة وانتقل به خاله إلى طنطا ، ولم يلبث أن استيقظت فيه مواهبه الأدبية ، واندلع إحساسه بالبؤس فى نفسه ، واندلع معه قلق شديد ، ففكر فى وسيلة يكسب بها عيشه ، حتى لا يثقل على خاله بمئونته ، واتجه إلى المحاماة ، وكانت مهنة حرة ، وليس لها قانون مسنون ، إنما تعتمد على الفصاحة وذلاقة اللسان . ولم يستقر فى مكتب محام بعينه ، بل أخذ يتنقل بين مكاتب المحامين المختلفة ، ويتنقل معه ضيقه وتبرمه بالحياة وقلقه الذى كان دائما يرافقه . وفاض نبع الشعر على لسانه ، فصب فيه نفسه القلقة الحائرة وما شعر به من بؤس وهم ثقيل . ومن شعره فى هذه الفترة :

عجبت لعمرى كيف مد فطالا ... وما أثرت فيه الهموم فزالا

وللموت ، مالى قد أراه مباعدا ... وجل مرادى أن أوسد حالا

فالموت خير من حياة أرى بها ... ذليلا وكنت السيد المفضالا

وبمثل هذا النغم الحزين استهل شعره ، يشدوه على قيثارته ، يندب عاثر جده وسوء حظه متبرما بزمنه وأرزائه ، ومتمنيا لو يوافيه الحمام .

وعلى هذه الشاكلة كانت الشكوى الشخصية من الزمن ومن حياة الضيق والعسر الموضوع الأول الذى افتتح به حافظ حياته الفنية ، ولكن كيف أعد نفسه للشعر وعلى أى الأساتذة درس أصوله ؟ الحق أنه لم يتعلم فن الشعر على أستاذ ، بل عكف بنفسه على قراءة الشعر القديم ، وكان له من اسمه أوفر نصيب ، فاستظهر كثيرا من درره وقصائده ، لبشار وأبى نواس والبحترى ، وأبى تمام وابن الرومى والمتنبى والشريف الرضى وأبى العلاء وأضرابهم ، وأشربت نفسه حب البارودى وما شرعه للشعراء من نبذ الأساليب الغثة السقيمة التى انتهى إليها الشعر فى عصره ، والرجوع به إلى قوالبه العباسية الجزلة المتينة القوية الرصينة ، بحيث تصور شخصية الشاعر ونفسه ووطنه وبيئته . وود حافظ لو أصبح من مدرسته ونسج على منواله ، وكان أول ما فكر فيه من تقليده أن يتخذ لنفسه سيرته ، ويجرى حياته فى نفس الدرب الذى سلكه ، فهجر طنطا ومكاتب المحامين بها والتحق بمدرسة الحرب ، وتخرج فيها ضابطا سنة ١٨٩١ ويعين فى وزارة الحربية ، ويعاوده الضيق والقلق الذى يستحوذ على كيانه ، وينقل إلى وزارة الداخلية ثم يعود إلى الحربية .

ويمضى فى ذلك نحو خمس سنوات يتعرف فيها على بعض الشخصيات من الأسر المصرية كأسرة أباظه وأسرة البكرى ، كما يتعرف على بعض الأدباء ، وكانت فيه فكاهة نشأت من روحه المصرية ، ونمتها عنده سرعة

بديهته ، فكان حبيبا إلى كل من يعرفه ، واستطاع بفضل راتبه أن يعرف أطرافا من اللهو .

وشعره فى هذه الفترة لا ينم على نضج فنه ، فهو لا يتجاوز به المديح والتهنئة والتعزية لبعض أصدقائه ، وأثر التكلف واضح فيه ، فهو يبالغ على طريقة القدماء فى معانيهم و يتخذهم نماذج له ويحاول أن يحاكيهم . ولكن أيظل حافظ فى هذه الحياة الضيقة الراكدة ؟ وهل تظل حياته الأدبية محدودة بدائرة أصدقائه ودائرة هذا التقليد للقدماء فى موضوعاتهم الشعرية؟ إن ربة الشعر لم تعده لمصر ليكون شاعر أفراد ، ولا شاعرا تقليديا يعيش فى إطار الشعر القديم ، إنما أعدته ليكون شاعر أمته فى محنتها أثناء الاحتلال وشاعر نفسه وشجونه . إذن فلا بد من حادث ضخم يخرجه من حدود بيئته وحدود تقليده للقدماء فى موضوعاتهم الأدبية . وخرج حافظ من وطنه مع حملة كتشنر إلى السودان ، وصفقت ربة الشعر طربا ، فإن حافظا يوشك أن يؤدى الرسالة المرجوة منه ضد الاحتلال وأفاعيه وسمومه . لقد أخذ يعمل مع الإنكليز أعداء وطنه وجها لوجه ، وأخذ يصلى نار السودان وفيافيه ، ونار كتشنر اللاذعة المحرقة .

لم يكن بد لحافظ الذى تمثلت فى روحه روح مصر الباسلة من أن يصطدم بهذا القائد الإنكليزى ، وسرعان ما اصطدم به فكتب أمام اسمه : لا يرقى

ولا يرفت . وسخط حافظ وقلق وضجر ، واستبد به القلق والضجر ، فكاتب الشيخ محمد عبده زعيم الحركة الفكرية حينئذ كي يتوسط له فى رجوعه وتخليصه من براثن العدو الغاشم . وراسل رفقاء لهوه فى القاهرة يتشوق الى وطنه مصوراً المجالس لهوهم وخمرهم . وكأنه يود لو أغرق فى الخمر أحزانه . وبذلك عاد إليه لحن شكواه القديم ، ولكنه يُطبع هذه المرة بالأسى على وطنه والسودان من ورائه ، وتصور ذلك خير تصوير قصيدته " العلمان الإنجليزى والمصرى فى مدينة الخرطوم " .

رويدك حتى يخفق العلمان ... وتنظر ما يجرى به الفتيان

فما مصر كالسودان لقمة جائع ... ولكنها مرهونة لأوان

وأكبر ظنى أن يوم جلائهم ... ويوم نشور الخلق مقترنان

وليت حافظا كان بيننا اليوم ليرى أن معجزة الجلاء تحققت ، وأنها لم تنتظر حتى أمارات الساعة ، غير أن ظلمة الاحتلال ودياجيه كانت تأخذ الوادى من جميع أطرافه ، فلم تلمع أمام عينيه بارقة أمل فى جلاء العدو عن ثرى الوطن ومقدساته . وما زال لهيب سخطه على كتشنر والإنكليز يضطرم فى فؤاده ، حتى ثار عليه مع طائفة من رفقائه الضباط ثورة تعيد إلى ذاكرتنا ثورة الضباط الأحرار على توفيق أيام عرابى . وفكرت الحكومة المركزية فى محاكمتهم ، ثم رأت الاكتفاء بإبعادهم إلى بلدهم .

وعاد حافظ إلى مصر فى سنة ١٨٩٩ محالا إلى الاستيداع، حتى إذا كانت سنة ١٩٠٣ أحيل إلى المعاش. وهو فى هذه الفترة يبدو مترددا فى الطريق التى سينتهجها لشعره، تارة ينافس الشعراء القدماء فى موضوعاتهم التقليدية من غزل ومديح ورثاء وتهنئة وعتاب ووصف للكاس والطاس، وتارة ينفصل عنهم ليصور همومه وهموم أمته إزاء الاحتلال.

وحاول أن ينظم مقطوعات فى وصف الطبيعة. ولكنه أحس من أعماقه أنه ليس شاعر طبيعة ولا حب وخمر ومناسبة عارضة، إنما هو شاعر شعب يعانى من أثقال الاستعمار وأغلاله. فهتف بشعره من صميم قلبه.

ضعت فى الشرق بين قوم هجود ... لم يفيقوا وأمة مكسال
قد أذالوك بين أنس وكاس ... وغرام بظبية أو غزال
ونسيب ومدحة وهجاء ... ورثاء ونتنة وضلال
آن يا شعر أن تفك قيودا ... قيدتنا بها دعاة المحال

وحاول الخديوى عباس أن يرعاه، ولعل ذلك سبب مديحه له حينئذ، ولكن نفسه المصرية أبت عليه أن يكون من رعايا القصر وسدنته. وبدلا من أن يتجه إلى عباس ورعايته اتجه إلى خصومه الشعبيين وحامل لوائهم الشيخ محمد عبده الذى كان يكاتبه من السودان. إنه يفضل كسرة

بيته وما هو فيه من عوز و إملاق على عباس وذهبه ، وانتصرت مصر فى شخصه على القصر وصحبه . أما الإنكليز فإنه يلعنهم و يصور بغيهم وظلمهم وما يعصرون من خيرات الوطن وطيباته ، بينما يعتدون على أبنائه و يرمون بأحرارهم فى غياهب السجون :

متى أرى النيل لا تحلو موارده ... لغـــير مرتهب لله مرتقب
فقد غدت مصر فى حال إذا ذكرت ... جادت جفونى لها باللؤلؤ الرطب
كأننى عنـــد ذكرى ما ألم بهـــا ... قـــرم تردد بين الموت والهرب
إذا نطقت فقاع السجن متكأ ... و إن سكت فإن النفس لم تطب
أيشتكى الفقـــر غادينا ورائحنا ... ونحن نمشى على أرض من الذهب
والقوم فى مصر كالإسفنج قد ظفرت ... بالمـاء لم يتركوا ضرعا لمحتلب

وكان فى هذه السنوات الأربع لا يزال خائفا يترقب المحتل وعدوانه وسجونه ، فأوحى إليه شيطانه أن يصانعه ، فرثى الملكة ڤيكتوريا حين ماتت فى سنة ١٩٠١ وهنأ خليفتها إدوارد السابع بتتويجه حتى لا يهيج حفيظة القوم عليه وحتى يأمن شرهم وكيدهم وما كانوا يمكرون .

و يبلغ الإعصار العاصف فى نفسه قوته ، فيطلب إحالته إلى المعاش ، ويجاب إلى طلبه ، و يصبح صوتا خالصا لوطنه وشعبه والشعوب العربية والشرقية من حوله .

وفى هذه الفترة التى تمتد من سنة ١٩٠٣ إلى سنة ١٩١١ ينضج فن حافظ، ويبلغ الأوج المنتظر. حقا إنه تلميذ البارودى، وقد أخذ يغشى مجالسه منذ عاد من منفاه سنة ١٩٠٠ ويتلقى عنه قوالب شعره محكمة تامة، ولكن من المحقق أنه لم يكن يقلده تقليد الضرير، إنما كان يتأثر خطاه، ويحاول أن يتم رسالته من تصوير الشاعر لأمته وعصره. ومن المحقق أيضا أنه يتميز عنه وعن شوقى فى أساليبه، فهو أكثر منهما وضوحا، وأكثر منهما استخداما للفصيح المألوف فى لغتنا المصرية لسبب بسيط، وهو أنه ابن الشعب، لم ينشأ مثلهما فى طبقة أرستقراطية، إنما نشأ فى طبقة ديمقراطية، ولذلك كان أدنى إلى الشعب فى لغته وفى روحه.

وتصادف فى إبان هذه الفترة من حياته الفنية أن اكفهرت الأجواء الأدبية بحملة رهيبة على لغتنا الفصحى، وارتفع ضجيج ينادى بأنها لا تمثل البلاد العربية الناطقة بها، وخير لكل بلد عربى أن يستخدم مكانها لغته المحلية. واختلط هذا الضجيج بأصوات بعض المستشرقين الانكليز يروجون للدعوة، حتى تنفصم عرى الوحدة العربية، ويتنابذ أهلها تنابذا لا يجتمعون بعده. واستشاط الجندى القديم غضبا للغة القرآن الكريم، وامتشق قلمه وطعن به دعوة القوم طعنة نجلاء بقصيدته الخالدة على لسان الفصحى:

رجعت لنفسى فاتهمت حصاتى ونادیت قومى فاحتسبت حياتى

ولم تقم للقوم بعد هذه الطعنة قائمة.

وعنفت الثورة بنفس الجندى القديم ، فاقتحم بقلمـــه وأسنة أبياته ميادين السياسة والإصلاح الاجتماعى فى جرأة وحماسة بالغة . وكل من يقرأه فى هذه السنوات الثمان من حياته لا يملك إلا أن يطأطىء الرأس له إجلالا ، فقد أصبح أقوى صوت شعرى للشعب وأضخمه ، يصرخ فى وجه المستعمر يريد أن يزلزل عليـه الأرض زلزالا ، ويصرخ فى أمته يريد أن يدفعها إلى الثورة دفعا ، ولكن أمته لابد لها من سلاح ، لا بد أن تتسلح للمستعمر بالعلم و بالخلق القوى ، ولا بد أن تتخلص من كل ما يفت فى عضدها من نقائص ومعايب . فليصرخ حافظ هنا وهناك ، حتى يستنهض همة شعبه وحتى يحفزه إلى ما يريد من نهضة قوية .

ولا بد لكى نفهم فى دقة هذه الدورة التاريخية لشعر حافظ أن نعرف أنه كان يعيش فى بيئات مختلفة فى وقت واحد ، إذ كان متصلا بكبار المصريين ، ولا نقصد طبقة الترك الارستقراطية ، فقد كانت تعيش على هامش الحياة المصرية ، إنما نقصد الطبقة الممتازة من المصريين الذين استطاعوا بفضل نشاطهم العقلى وجهودهم العلمية أن يصلوا إلى مناصب عليا فى مرافق البلاد المختلفة ، وأكثرهم من أبناء الفلاحين ، أمثال الشيخ محمد عبده ، وقاسم أمين ، وحسن عاصم ، والشيخ على يوسف ، ومصطفى كامل ، وهى الطبقة التى كانت تطمح إلى الإصلاح الدينى والاجتماعى والسياسى وكانت تدعو إليه ، كل فى مجاله . وكان من أهم ما يميزها شدة شعورها

بآلام الشعب وظلاماته وآماله ومطامحه ومثله العليا غير المحدودة . ولم تكن أحاديثها تدور إلا فى هذه الأفكار، يتحدث محمد عبده فى مجالسه ودروسه عن الجمود الدينى، ويتحدث قاسم أمين عن السفور وتحرير المرأة، وحسن عاصم عن أعمال البر والخير ، وعلى يوسف عن الضعف الخلقى، ومصطفى كامل عن الاحتلال وشروره وآثامه .

وكان حافظ يشركهم فى هذه الأحاديث ، وينقلها بشعره إلى الشعب — وكأنه آلة مصورة — تنقل نقلا أمينا دقيقا ، بل لقد كان ينفخ فيما ينقله عنهم من روحه وينفث فيه من حماسته . وكثيرا ما وقف مع هؤلاء المصلحين يدافع عنهم بأسنة شعره على نحو ما هو معروف عنه فى دفاعه عن قاسم أمين حين تألب الجمهور على دعوته إلى السفور ، ودفاعه عن الشيخ محمد عبده حين كانت تتألب بعض الصحف أو يتألب بعض رجال الدين الجامدين على دعوته إلى التحرر الدينى .

وبجانب هذه البيئة الممتازة التى كان يعيش فيها ، وتفسح له فى دورها ومجالسها، كان يعيش فى بيئة الأدباء المختلفين أمثال اسماعيل صبرى، ومحمد المويلحى ، وحفنى ناصف، وعبد العزيز البشرى، وإمام العبد وغيرهم ، وكان منهم من كفل له رزقه وكفى مئونته، ومنهم الشقى البائس مثل حافظ نفسه، وكانت كثرتهم تختلف إلى المقاهى فى الأحياء الوطنية : فى باب الخلق والسيدة زينب ، والعتبة الخضراء ، وكان حافظ يختلط بهم ويشاركهم

أحاديثهم الشعبية وما يعلقون به على الحوادث السياسية وتصرفات الخديوى وبطانته وسياسة قصر الدوبارة وسياسة دانلوب فى التعليم . وفى تضاعيف ذلك يكثر من التندر والفكاهة ، فبؤسه لم يكسر نفسه ، بل ظلت له شخصيته وظل مبتسما كثير الدعابة ، يتندر حتى من بؤسه وقد احتفظ ديوانه بأطراف من هذه الدعابات التى لم تفارقه طوال حياته .

وعلى نحو ما كان حافظ يخالط هاتين البيئتين السابقتين كان يخالط بيئة الشعب العامة فى غدوه ورواحه بحكم فقره وبؤسه . ومعنى ذلك أنه كان مختلطا بطبقات الشعب المصرى المختلفة ، فانطبعت حياتها ومشاعرها جميعا فى نفسه ، وأحس آلامها وآمالها السياسية وما تتعطش إليه من الإستقلال والحرية إحساسا عميقا . وكانت الحوادث لا تزال تذكى هذا الإحساس فى فؤاده ، وكانت حادثة دنشواى المشهورة أهم حادثة دفعته إلى نضال المحتل ونزاله . وما زال تحت لواء مصطفى كامل يرمى كرومر بقذائف أبياته . حتى استقال من منصبه فصاح من أعماقه :

فليت كرومرا قد دام فينا ... يطوق بالسلاسل كل جيد

ويتحف مصر آنا بعد آن ... بمجلود ومقتول شهيد

لننزع هذه الأكفان عنا ... ونبعث فى العوالم من جديد

وعلى نحو ما كان يصيح بكرومر والإنكليز كان يصيح بالشباب المصرى أن يفيق من تواكله وتخاذله ، ويثور لكرامة وطنه . وكان ينتهز كل فرصة ليهز قلوب الشباب ونفوسه ويثير مكامن الحقد والغيظ فيه سواء حين يتحدث عن زواج الشيخ على يوسف ، أو عن حرب اليابان والروس ، أو عن غادة اليابان ومواساة جنود قومها فى القتال ، أو عن الدستور العثمانى ، أو حين يلم روزفلت بمصر ، أو حين يحيى العام الهجرى . ولما كشر المحتل عن أنيابه لزعماء الحزب الوطنى بعد وفاة مصطفى كامل وأصدر قانون المطبوعات يغل به الحريات ، وتحفز لرجال الصحافة وكل من ينبس ببنت شفة ، ثار ثورة عنيفة على هذا القانون ، ودعا دعوة صريحة إلى الانتقاض على الإنكليز مهما كلف ذلك المصريين من الدماء وعزيز الفداء ، يقول من قصيدة طويلة :

إن البليـة أن تبـاع وتشترى مصر وما فيهـا وأن لا تنطقـا
الموت فى غشيـانه وطـــروقه والموت كل الموت أن لا يطرقا

ولن تجد شاعرا استولت مصر على كيانه فى هذه الفترة على نحو ما استولت على حافظ الذى تحول بشعره إلى ما يشبه حرابا مسمومة لا يزال يسددها إلى صدور العدو وظلمه وجبروته .

وحافظ فى هـذا الشعر السياسى الوطنى يعد مبتكرا لصورة جديدة فى شعرنا العربى لم يكن القدماء من شعرائنا يألفونها إذ كانوا يعيشون غالبا

فى أبراجهم العاجية منفصلين عن شعوبهم وأهوائها وعواطفها السياسية. وحقا سبقه البارودى إلى رسم جوانب من تلك الصورة، ولكنه هو الذى أوفى بها على الغاية من التعبير والتلوين والتظليل. ومن المهم أن نعرف أن ديوانه لا يضم كل ما نظمه فى هذا الحين هاجيا الإنكليز والخديوى ورجال القصر وناقدا بعض النظار والحكام وألوان الحكم، فكثير مما قاله لم يستطع نشره للظروف السياسية القائمة. وأكبر الدلالة على ما نزعم أن قصيدته التى وجهها إلى سعد زغلول حين أسندت إليه مقاليد نظارة المعارف والتى يقول فيها :

فما دام فى قصر الدبارة ربه فسعد ودنلوب لعمرك واحد

سقطت من ديوانه. ومعنى ذلك أن شعرا سياسيا كثيرا له فقد، إذ لم يكن من سبيل إلى نشره وإذاعته فى الجمهور.

وهذا اللون السياسى الصارخ فى شعره أثناء هذه الفترة الخصبة من حياته الفنية كان يقترن به لون صارخ من الشعر الاجتماعى لم يسبق إليه، وهو فيه يحارب الفقر والجهل وعللنا الاجتماعية والأخلاقية المختلفة. وله فى هذا اللون شعر كثير يدعو فيه إلى البر بالفقراء وإنشاء الملاجىء لهم والجمعيات دعوة تفجر ينابيع الرحمة والإحسان من أشد القلوب قسوة، كما يدعو إلى النهوض بالتعليم وإنشاء المعاهد ودور العلم

والدرس ، وقد دعا دعوة حارة إلى إنشاء الجامعة القديمة ، ولما فتحت أبوابها للطلاب هلل لها طويلا كما هلل لمدرسة بنات أنشئت ببور سعيد ، فنظم فى طاب العون لها قصيدة رائعة وهى التى يقول فيها :

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق

وقد تحول فيها إلى ما يشبه مصلحا اجتماعيا ، يريد أن يصلح النفوس المريضة من حوله وكان أكبر من آذاه من أصحاب هذه النفوس ، كما صور ذلك فى قصيدته ، الفقيه الذى يحال ما حرم الله إبتغاء منفعة عاجلة ، والطبيب الذى يأكل أموال المرضى بالباطل ، ومهندس الرى الذى يرتشى فى عمله والأديب المنافق الذى يقلب الباطل حقا . وكان لا يزال يصف هذه العلل وأمثالها ، ويرشد إلى علاجها والتخلص منها ومن آفاتها بروح الصادق المخلص الأمين .

وحافظ فى هذا اللون من الشعر الاجتماعى سابق لشعراء العرب جميعا ، فمن قبله لم تعرف العربية شاعرا اجتماعيا من طرازه . حقا نجد عند المتنبى وأبى العلاء بعض أبيات وأشعار تنحو هذا النحو ، ولكنهما لا يقصدان بها — كما قصد حافظ — إلى غاية اجتماعية من إصلاح شعب وتقويمه وتحريك نفسه وإثارتها ضد معايبه ومساوئه . ومن أجل ذلك

لُقّب غير منازع ولا مدافع — بالشاعر الاجتماعى ؛ لقبا انفرد به من دون شعراء عصره .

ولم يكن حافظ فى هـذه الفترة شاعر وطنه فحسب ؛ بل كان أيضا شاعر العرب والعروبة ؛ إذ نادى مخلصا بوجوب التآخى والتعاون بين البلاد العربية مشيرا إلى ما بينها من أواصر فى التاريخ واللغة والدين على نحو ما نقرأه فى قصيدته " سوريا ومصر " التى يفتتحها بقوله :

لمصر أم لربوع الشام تنتسب هنا العلا وهناك المجد والحسب

والتى يقول فى أثنائها :

إذا ألمتْ بوادى النيل نازلة
باتت لها راسيات الشـام تضطرب

هذى يدى عن بنى مصر تصافحكم
فصافحوها تصافح نفسها العرب

وحافظ الموجع لوطنه فى هذه الفترة كان يتوجع لكل وطن تنزل به كارثة ، وقصيدته فى زلزال مسينا آية من آيات الإنسانية الخالدة .

وفى هـذه السنوات الثمـان كان يمدح عباسا ، ولكنه ينطق بصوت الشعب ويصور مشاعره ومطالبه ، وأيضا كان يمدح الترك وخليفتهم ، ولكنه لا يصدر فى ذلك عن ملق ونفاق ، وإنما يصدر عن روح الشعب الذى

كان يأمل — مع ابنه البار مصطفى كامل — فى أن ترد تركيا أعداءه الإنكليز عن دياره .

وليس المديح وحده فى هـذه الفترة الذى تطور على لسانه من مديح شخصى إلى مديح شعبى ؛ فقد تطور الرثاء على شاكلته ؛ وخاصة حين يرثى من فقدهم الشعب من مصلحيه وقادته ؛ أمثال : محمد عبده ، ومصطفى كامل وقاسم أمين ، وله فيهم مراث رائعة ، وروعتها لا تأتى من أنه يصور فيها لوعته وحزنه ، وإنما تأتى من أنه يصور فيها لوعة أمته وحزنها على أفلاذ كبدها حزنا يقطع نياط القلوب . وكان لا يزال ينظم فى مناسبات عارضة من حين الى حين .

ونمضى إلى سنة ١٩١١ فيسقط الشاعر الغريد من سمائه الحرة الطليقة ويصبح حبيسا فى قفص الوظيفة بدار الكتب المصرية ، وينعقد لسانه فلا يعود إلى شدوه القديم فى الشكوى ، ولا فى السياسة . وفى رأينا أن ليست الوظيفة وقيودها الرسمية وحدها هى التى عقدت لسانه الثائر ، وإنما عقده معها ضرب من اليأس والقنوط استولى على نفس الشاعر ، فإن جهاد المصريين للإنكليز ارتطم بوفاة مصطفى كامل وبسياسة الوفاق التى اتبعها عباس مع المعتمد الانكليزى حينذاك .

فقبع المصريون فى عقر ديارهم ، وقبع حافظ فى دار الكتب المصرية ينتظر راتبه الشهرى ، ولم تلبث الحرب الكبرى أن نشبت وأعلنت الأحكام العرفية واحتجبت عن الظهور أكثر الصحف المصرية ، ولم يعد هناك ما يدل على أن الشعب سيثور سريعا بغاصبيه المعتدين الظالمين . فمصر قد أصابها حينئذ ما يشبه الإغفاء ، وتسرب اليأس إلى نفس حافظ ، فلم يعد يرمى المحتل بقذائفه وسهامه اللاذعة ، بل انصرف إلى مجاملات للقصر وتحيات لأصدقائه ومراث للراحلين ، ونثرت على لسانه كلمات لمكاهون معتمد الإنكليز أخطأ فيها القصد وانحرف به السبيل ، ويأسى الدارس لحافظ أن يتحول فى هذه الفترة من شاعر للشعب إلى شاعر للظروف والأحداث والمناسبات الطارئة . وحقا صاح فى وجه الاستعمار ، ولكن لا فى مصر وإنما فى طرابلس وضد إيطاليا . وقد ظل يدعو الى الإحسان وإنشاء الملاجىء والجمعيات الخيرية ، ورجع الى التاريخ العربى فاستمد منه سيرة عمر بن الخطاب فى قصيدته العمرية المشهورة ، ونظم فى ذكرى شكسبير ولم تفارقه ابتسامته ودعاباته .

ولما ثارت مصر فى وجه الإنكليز فى سنة ١٩١٩ عادت لشاعر الشعب قواه القديمة ، فاسترد صوته ولكن مع شىء من الحذر ، مخافة أن يحرم من وظيفته ، فقد نظم قصيدة فى مظاهرة للسيدات بتلك الثورة ، وهى تمتلىء بالسخرية من الانكليز ، ولم ينشرها فى الملأ من الناس ، بل أعطاها

للثائرين ليوزعوها فى منشورات غير ممضاة. على أنه سرعان ما رجعت إليه طمأنينته فحمل قيثارته ، وأخذ يرتل عليها أنغامه الوطنيـة فى الأحداث السياسية وقصيدته على لسان مصر :

وقف الخلق ينظرون جميعاً كيف أبنى قواعد المجد وحدى

قلادة باهرة من قلائد شعره ، وقد عاد ينتفض حزنا وألما كلما قضى زعيم من زعماء الشعب وخلا مكانه، على نحو ما نرى فى رثائه لمحمد فريد وسعد زغلول . وأخذ يلحن مع الأنغام السياسية أنغام العروبة والإسلام وقصيدته " تحية الشام " فريدة بديعة من فرائده . ومن المهم أن نعرف أنه لم يعد الى مديح الترك منذ الحرب الكبرى العامة لخروجهم عن نطاق أمانينا الوطنية . وقد ظلت له نزعته الاجتماعية، وأكثر بحكم تقدمه فى السن من المجاملات ومن التهنئات والتعزيات .

ونمضى معه حتى فبراير سنة ١٩٣٢ فيحال الى المعاش ويعود الاعصار القاصف الى سابق العهد به . ويبلغ أقصى قوته، فقد رفعت من طريقه حواجز الوظيفة وأغلالها الرسمية ، وأصبح خالصا لأمته ، وكان إسماعيل صدقى يخنق الحريات حينئذ خنقا وكان الانكليز يؤيدونه، ويشدون على يده ، فحوّل أشعاره الى ما يشبه سوطا يلهب به جلودهم وجلد صنيعتهم صدقى . وديوانه لا يضم كل الشعر السياسى الذى نظمه لهذا العهد. فقد نظم

قصيدة تربو على مائة وخمسين بيتا فى هجاء صدقى والانكليز، وليس فى ديوانه منها سوى أحد عشر بيتا .

ومعنى ذلك أن الحائل الذى منع حافظا من نشر شعره السياسى فى أوائل القرن ظل إلى آخر حياته ، ومعناه أيضا أن ديوانه لا يحتوى كل ما نظمه من هـذا الشعر لا فى شبابه ولا فى شيخوخته ، ومن المحقق أن ما ضاع منه كان شيئا قيما . على أن القدر لم يمهله فى صراع صدقى الطاغية وصراع بغيه وعدوانه على الحريات إذ سرعان ما سقطت قيثارة الشعر من يده فلبى نداء ربه مخلفا وراءه لشعبه هذا التراث الشعرى الخالد .

نضر الله وجهه فى آخرته بمقدار ما أدى لأمته وأسكنه فسيح جنته .

قصائد مختارة من شعر حافظ

للأستاذ كامل الشناوي

هل كان شاعرنا حافظ إبراهيم من شعراء الألفاظ ، أو كان من شعراء المعانى ؟

سؤال تردد على الأفواه أول ما تردد منذ خمسة وخمسين عاما ، عندما أصدر حافظ الجزء الأول من ديوانه . وقد أجاب عن هذا السؤال أكثر من كاتب ، وناقد ، وشاعر ، واختلفت إجاباتهم اختلاف النقيض والنقيض ، فبينهم من ذهب إلى أن حافظاً شاعر لفظ ، و بينهم من ذهبوا إلى أنه شاعر معنى .

ولم يخطر لى وأنا أدرس شعر حافظ أن أعرف أين مكانه من شعراء المعانى وشعراء الألفاظ ، لأنى لا أومن بأن هنالك شعرا يقوم على المعنى وآخر يقوم على اللفظ ، فالشعر ليس لفظا أو معنى ، ليس أسلوبا أو فكرة ليس إطارا أو مضمونا ، وإنما هو كل هذا جميعا ، إن اللفظ لا يعبر عن غير معنى ، والمعنى لا يتكون بغير لفظ ، لابد إذن من اللفظ والمعنى معا ، والشعر ليس أخيلة وانفعالات نعبر عنها بالصياغة البيانية ، والوزن

والجرس الموسيقى فحسب ، ولكن الشعر عمل فنى يتألف من المعنى ، والفكرة ، والصورة ، والأسلوب ، والتجربة الواقعية ، والتجربة الذهنية.

وهو مثل كل عمل فنى ، يجب أن يكون له ما للكائن الحى من نمو ، وتكامل ، وشخصية .

ولقد خرجت من دراسة شعر حافظ بما أكد لى أن حافظا شاعر ذو شخصية بارزة طاغية فى تاريخ الأدب العربى الحديث .

لم تتكون شخصية حافظ من استحداث مذهب فى الأوزان والأشكال ، أو خلق طريقة جديدة فى التعبير عن المشاعر الإنسانية الثابتة مشاعر الحب ، والحزن ، والقلق ، وإنما تكونت شخصية حافظ من تجاوبه التام مع الشعب ، فى الرأى ، والعاطفة ، والاتجاه ، فلا يقع حادث اجتماعى أو سياسى إلا بادر بتسجيله ، أحيانا يجنح إلى التصريح وأحيانا يلجأ إلى التلميح .

عاش حافظ فترة هامة فى تاريخ مصر ، كان الاحتلال البريطانى وسيطرة القصر يتنازعان الاختصاص فى إذلال الشعب . . كانا القوتين تريد أن تستأثر وحدها بتقويس الظهور ، وإحناء الرؤوس ، وإهدار الحقوق والحريات .

وكان فى مصر اتجاهان سياسيان : اتجاه يعادى القصر ، واتجاه يعادى الاحتلال . ومعاداة القصر تتّسم بالمهادنة للاحتلال ، ومعاداة الاحتلال تتسم بالولاء للقصر ، وكان حافظ يقف من هذين الاتجاهين فى المكان الوسط . . يعادى الإنجليز حينا ، ويهادنهم حينا ، ويعادى الخديوى حينا ويبدى له الولاء حينا ، وهو فى خصومته ، ومهادنته وولائه ، لا يتطرف ولا يغرق فى الثورة والاندفاع . كان مؤرخا يسرد الأحداث كما وقعت ويسكب عليها لونا من عنده ، وكان هذا اللون فى الغالب الأعم : لونا وطنيا حماسيا ، ينبض بكراهة الظلم والطغيان ، ويحض الشعب على الخلاص من القيود جميعا . وكان يثير الشعور ببكائه الحار على ما وصلت إليه حالته ، وهو فى كل ما عالجه من موضوعات ، يرعى شعور الجماهير فقد كان حافظ شاعر الجماهير . ولقد بلغ من حرصه على جمهوره أنه كان لا يواجه المجتمع بفكرة دينية أو اجتماعية أو سياسية ، تمس عقائد الناس إلا فى القليل النادر ، كقوله فى السخرية من تقديس أضرحة الأولياء :

أحياؤنا لا يرزقون بدرهم ... وبألف ألف ترزق الأمـوات

من لى بحـظ النـائمين بحفـرة ... قامت على أحجـارها الصلوات

يسعى الأنام لها ، ويجرى حولها ... بحـر النذور ، وتقرأ الآيات

ويقال : هذا القطب باب المصطفى ... ووسيلة تقضى بهـا الحـاجات

*
* *

هذه الصورة الصحيحة للرأى العام السياسى فى عصر حافظ ، تقابلها صورة صحيحة أيضا للرأى العام الفكرى . فقد ظهر فى هذا العصر اتجاه فكرى متحرر ، يقابله اتجاه آخر شديد التحفظ والتمسك بالتقاليد . ظهر قاسم أمين ودعا إلى سفور المرأة . وظهر شبلى شميل وهاجم العقيدة الدينية ، وعبر عن أفكار رأى فيها معاصروه كفرا صريحا ، وظهر محمد عبده وأصدر فتاوى دينية جريئة تتعلق بحالات البنوك وحقوق العمال ، ورأى فيها أهل الدين خروجا وبدعة وضلالا . كان الاتجاه التحررى قويا وكان الاتجاه المتحفظ قويا أيضا ، وكانت الجماهير مع الاتجاه المحافظ . وشاعرنا لا يستطيع أن يعيش بغير جمهور . ولكن له رأيا يريد أن يعبر عنه . ولقد عرف كيف يحتفظ برأيه السياسى والاجتماعى ، دون أن يؤاب عليه الجماهير .

فى عام ١٩٠٦ ارتكب الاحتلال جريمة إنسانية اهتز لها العالم . فقد قصد خمسة من الضباط الإنجليز إلى قرية دنشواى لصيد الحمام ، فأطلقوا النار على بعض المارة ، وثارت القرية على الضباط ، واصطدم الأهلون بالضباط ، وأصيب أحدهم إصابات أفضت إلى موته ، وقد أمر اللورد كرومر بتأليف محكمة كاملة من القضاة الإنجليز وقاض مصرى هو فتحى زغلول ، ومدع عام هو إبراهيم الهلباوى ، وقضت المحكمة بإعدام أربعة من أهل القرية وجلد وحبس ثمانية ، وتم تنفيذ الإعدام والجلد فى دنشواى نفسها .

أيقظ هذا الحادث شعور السخط على الاحتلال ، واستغله الوطنيون فى الحملة على بريطانيا ، وانتهى بأن سحبت انجلترا عميدها كرومر من مصر .

وقد تناول حافظ هذا الحادث بأسلوب جمع بين المرارة ، والجزع ، والتهيب ، والثورة . . .

عاتب الإنجليز ثم حمل عليهم . ولم يشر إلى فتحى زغلول بكلمة ، وصب جام غضبه على الملباوى وحده ، قال :

أيها القائمون بالأمر فينا ! هل نسيتم ولاءنا والودادا ؟ !
خفضوا جيشكم وناموا هنيئا وابتغوا صيدكم وجوبوا البلادا
وإذا أعوزتكم ذات طوقٍ بين تلك الربا فصيدوا العبادا
إنما نحن والحمام سواء لم تغادر أطواقنا الأجيادا
لا تظنوا بنا العقوق ، ولكن أرشدونا إذا ضللنا الرشادا
لا تقيدوا من أمةٍ بقتيلٍ صادت الشمس نفسه حين صادا
جاء جهالنا بأمرٍ ، وجئتم ضعف ضعفيه قسوة واشتدادا
أحسنوا القتل إن ضننتم بعفوٍ أقصاصا أردتم أم كيادا ؟
أحسنوا القتل إن ضننتم بعفوٍ أنفوسا أصبتم أم جمادا ؟

ليت شعرى أتلك (محكمة التفـ ـتيش) عادت أم عهد (نيرون) عادا؟
كيف يحلو من القوى التشفى من ضعيف ألقى إليه القيادا ؟
إنها مثلة تشف عن الغيـ ـظ ولسنا لغيظكم انتدادا
أكرمونا بأرضنا حيث كنتم إنما يكرم الجواد الجوادا
إن عشرين حجة بعد خمس علمتنا السكون مهما تمادى
أمة النيل أكبرت أن تعادى من رماها وأشفقت أن تعادى
ليس فيها إلا كلام ، وإلا حسرة بعد حسرة تتهادى

* * *

أيها المدعى العمومى مهلا بعض هذا فقد بلغت المرادا
قد ضمنا لك القضاء بمصر وضمنا لنجلك الإسعادا
فإذا ما جلست للحكم فاذكر عهد (مصر) فقد شفيت الفؤادا
لاجرى النيل فى نواحيك يا (مصـ ـر) ولا جادك الحيا حيث جادا
أنت أنبت ذلك النبت يا (مصـ ـر) فأضحى عليك شوكا قتادا
أنت أنبت ناعقا قام بالأمـ ـس فأدمى القلوب والأكبادا
ايه يامدرة القضاء ! ويامن ساد فى غفلة الزمان وشادا
أنت جلادنا ، فلا تنس أنا قد لبسنا على يديك الحدادا

ولقد ترك حادث دنشواى فى صدر حافظ أثرا عميقا ، وحول يأسه من زوال الاحتلال إلى ثورة صريحة على الاحتلال فبعد وقوع هذا الحادث بستة أشهر نشر قصيدة قال فيها يخاطب كرومر :

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت ... حواشيه حتى بات ظلما منظما
تمن علينا اليوم أن أخصب الثرى ... وأن أصبح المصرى حراً منعما
أعد عهد (إسماعيل) جلدا وسخرة ... فإنى رأيت المن أنكى وآلما
عملتم على عز الجماد وذلنا ... فأغليتم طيننا وأرخصتم دما
إذا أخصبت أرض وأجدب أهلها ... فلا أطلعت نبتا ولا جادها السما
نهش إلى الدينار حتى إذا مشى ... به ربه للسوق ألفاه درهما
فلا تحسبوا فى وفرة المال — لم تفد ... متاعا ولم تعصم من الفقر — مغنما
فإن كثير المال والخفض وارف ... قليل إذا حل الغلاء وخيما

ثم استقال كرومر ، وترك مصر ، ولما يمض على حادث دنشواى أكثر من عشرة شهور ، فودعه حافظ بقصيدة كظم فيها الغيظ ، واستخدم أسلوب السياسى والمؤرخ ، وهو أسلوب تفرد به حافظ ، وكان إحدى خصائصه الفنية . إن حافظا فى هذه القصيدة يحاول أن يعطى ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، ولقد يرى كثيرون أن حافظا رحمه الله قد أعطى قيصر أكثر مما أعطى لله !

يقول :

فتى الشعر هـــذا موطن الصدق والهدى
فلا تكذب التاريخ إن كنت منشدا

لقـد حان توديع العميد ، وإنه حقيق بتشييع المحبين والعـدا
فودع لنا الطود الذى كان شامخا وشيع لنـا البحر الذى كان مزبِدا
وزوده عنّـا بالكرامة كلهـا وإن لم يكن بالباقيات مزودا
فلِم لا نرى الأهرام ـ يانيل ـ مُيدا ؟ وفِرعون عن واديك مرتحِل غدا ؟
كأنك لم تجزع عليـه ولم تكن ترى فى حِمى فِرعون أمنا ولا جدا
سـلام ! ولو أنا نسىء إلى الألى أساءوا إلينـا ما مددنا لهم يدا
سنطرى أياديك التى قـد أفضتها علينـا فلسنا أمـــة تجحد اليدا
أمنا ، فلم يسلك بنا الخوف مسلكا وِمنا ، فلم يطرق لنا الذعر مرقدا

وكنت رحِيم القلب تحمى ضعيفنا
وتدفع عنـا حادث الدهرِ إن عدا

ولولا أسى فى (دِنشواى) ولوعة وفاجِعة أدمت قـلوبا وأكبدا
— ورميك شعبا بالتعصب غافلا وتصويرك الشرق غرا مجردا —

لذبنا أسى يوم الوداع لأننا ... نرى فيك ذاك المصلح المتوددا
تشعبت الآراء فيك فقائل ... أفاد الغنى أهل البلاد وأسعدا
وكانت له فى المصلحين سياسة ... ترخص فيها تارة وتشددا
رأى العز كل العز فى بسطة الغنى ... فحارب جيش الفقر حتى تبددا
وأمتعكم بالنيل فهو مبارك ... على أهله ، خصبا وريا وموردا
وسن لكم حرية القول عندما ... رأى القول فى أسر السكوت مقيدا
وآخر لم يقصر على المال همه ... يرى أن ذاك المال لا يكفل الهدى
فلا يحمد الإثراء حتى يزينه ... بعلم ، وخير العلم ما كان مرشدا
يناديك قد أزريت بالعلم والحجا ... ولم تبق للتعليم يا (لُرْد) معهدا
وأنك أخصبت البلاد تعمدا ... وأجدبت فى مصر العقول تعمدا
قضيت على أم اللغات ، وإنه ... قضاء علينا ، أو سبيل إلى الردى
حجبت ضياء الصحف عن ظلماته ... ولم تستقل حتى حجبتَ (المؤيدا)
وأودعت تقرير الوداع مغامزاً ... رأينا جفاء الطبع فيها مُجَسدا
غمزت بها دين النبى ، وإننا ... لنغضب إن أغضبت فى القبر (أحمدا)
يناديك : أين النابغون بعهدكم ؟ ... وأى بناء شامخ قد تجددا ؟
يناديك : وليت الوزارة هيئة ... من الصم لم تسمع لأصواتنا صدى

فليس بها عند التشاور من فتى ... أبى إذا ما أصدر الأمر أوردا

برئك ماذا صدنا ؟ ولوى بنا ... عن القصد ؟ إن كان السبيل مهدا ؟

أشرت برأيٍ فى كتابك : لم يكن ... سديدا ؛ ولكن كان سهما مسددا

وحاولت إعطاء الغريب مكانة ... تجر علينا الويل والذل سرمدا

فيا ويل مصر يوم تشقى بندوةٍ ... يبيت بها ذاك الغريب مسودا

ألم يكفنا أنا سلبنا ضياعنا ... على حين لم نبلغ من الفطنة المدى ؟!

وزاحمنا فى العيش كل ممارسٍ ... خبير ؟ وكنا جاهلين ورقدا

وما الشركات السود فى كل بلدةٍ ... سوى شركٍ يلقى به من تصيدا

فهذا حديث الناس ، والناس ألسن ... إذا قال هذا صاح ذاك مفندا

ولو كنت من أهل السياسة بينهم ... لسهلت لى رأيا . بلغت مقصدا

ولكننى فى معرض القول شاعر ... أضف إلى التاريخ قولا مخلدا

فيأيها الشيخ الجليل ! تحية ... ويأيها القصر المنيف تجلدا

لئن غاب هذا الليث عنك لعلةٍ ... لقد لبثت آثاره فيك شهدا

إن حافظا لم يدع حادثا عالميا ، سياسيا أو إنسانيا دون أن يسجله يعاتب سلطان مراكش ويآزر اليابان فى حربها ضد روسيا ، ويشيد بالدولة العلية ويودع كرومر ، ويستقبل جورست ، ويهنئ الخديو بالعام

الجديد ، ويتكلم عن الأسطول العثمانى ، ويبكى على تولستوى ، ويمجد شكسبير ، وينظم تمثيلية فى حادثة إعتداء الأسطول الطليانى على بيروت انتقاما من الترك ، ويحمل على إمبراطور ألمانيا لأنه تسبب فى إشعال الحرب العالمية الأولى ، ويحيي ساسة مصر على اختلافهم فى وجهات النظر لأنه يرى الجانب الجميل فى كل منهم .

وقد كان حزنه على وفاة مصطفى كامل نابعا من القلب .

وكان تأييده صادقا عميقا لسعد زغلول ، وكان بكاؤه حارا على محمد فريد .

وفى عام ١٩٠٩ قامت فى تركيا ثورة انتهت بخلع السلطان عبدالحميد وتولية السلطان محمد الخامس ، وفرح الأحرار فى كل بلد عربى لزوال ملك عبدالحميد وشيعه الشعراء بالنقمة والشماتة ، وتناول حافظ هذا الحادث بأسلوبه السياسى الفريد :

لا رعى الله عهدها من جدود ! كيف أمسيت يابن (عبد المجيد)؟
مشبع الحوت من لحوم البرايا ومجيع الجنود تحت البنود
كنت أبكى بالأمس منك ، فمالى بت أبكى عليك (عبد الحميد) ؟
فرح المسلمون قبل النصارى فيك قبل الدروز قبل اليهود

شمتوا كلهم ، وليس من الحكمة أن يشمت الورى فى طريد

أنت (عبد الحميد) والتاج معقو د ، و (عبد الحميد) رهن القيود

خالد أنت رغم أنف الليالي ... فى كبار الرجال أهل الخلود

لك فى الدهر — والكمال محال — ... صفحات ، ما بين بيض وسود

حاولوا طمس ما صنعت وودوا ... لو يطيقون طمس خط الحديد

ذاك (عبد الحميد) ذخرك عند الله ... باقٍ ، إن ضاع عند العبيد

أكرموه ، وراقبوا الله فى الشيـ ... ـخ ، ولا ترهقوه بالتهديد

لا تخافوا أذاه ؛ فالشيخ هاوٍ ... ليس فيه بقية للصعود

ولى الامر ثلث قرنٍ ينادى ... باسمه كل مسلمٍ فى الوجود

كلما قامت الصلاة دعا الدا ... عى (لعبد الحميد) بالتأييد

فاسم هذا الأسير قد كان مقرو ... نا بذكر الرسول والتوحيد

بت أخشى عليكم أن يقولوا ... إن أثرتم من كامنات الحقود

كان (عبد الحميد) بالأمس فردا ... فغدا اليوم ألف (عبد الحميد)

يا أسيرا فى (سنت هيلين) رحب ... بأسير فى (سالنيك) جديد

قل له : كيف زال ملكك ؟ لم يع ... صمك إعداد عدةٍ أو عديد

لم تصنك الجنود تفديك بالأر ... واح ؛ والمال ، بل اغرام الجنود

قل له : كيف كنت ؟ كيف امتلكت الأرض ؟ كيف انفردت بالتمجيد ؟

فثلاث العروش عرشا فعرشا ... وصبغت الصعيد بعد الصعيد

كلما نِلتَ غايه لم تنلها ... همة الدهرِ قالت : هل من مزيد ؟
ضاقت الأرض عن مداك فأرسلـ ... ـت بطرفٍ إلى السماء عتيد
قل له : جل من له الملك ! لا ما ... ـك لغير المهيمن المعبودِ
أنت — مهما شقيت — أرفه حالا ... من أسير الجزيرة المكمودِ
وأسير الأقفاص قد كان أشقى ... لو سألت الأسفار عن (يا يزيد)
كان (عبد الحميد) فى القصر أشقى ... منه فى الأسر والبلاء الشديدِ
كان لا يعرف القرار بليلٍ ... لا ولا يستلذ طعم الهجود
حذرا ، يرهب الظلام ، ويخشى ... خطرة الريح أو بكاء الوليدِ
نفق تحت طابقِ الأرض أخفى ... فى تدجيه من ضميرِ الكنود
يعجز الوهم عن تلمس ذاك الـ ... ـباب : باب الخليفة المنكودِ
أصحيح ما قيل عنك ؟ وحق ... ما سمعنا من الرواة الشهودِ
أن (عبد الحميد) قد هدم الشر ... ع ، وأربى على فعال الوليدِ
إنْ بريئا ، وإن أثيما ، ستجزى ... يوم تجزى أمام رب شهيدِ
أصحيح بكيت ؟ لما أتى الوفـ ... ـد ؟ ونابتك رعشة الرعديدِ ؟
ونسيت الآباء ، والمجد ، والسؤ ... دد والعزَّ ، يا كريم الجدودِ ؟
ما عهدنا الملوك تبكى ! ولكن ... علها نزوة الفؤاد الجليد

هاهنا دمعة الوداع لذاك الـ ـملكِ ، أو ذكرة لتلك العهودِ
غسل الدمع عنك حوْبَةَ ماضيـ ـك ، ووقاك شر يوم الوعيد
شفع الدمع فيك عند البرايا ليس ذاك الشفيع بالمردودِ
دمعك اليوم مثل أمرك بالأمـ ـس مطاع فى سيدٍ ومسودِ
كان (عبد العزيز) أجمل أمرا منك فى يوم خلعه المشهود
خاف مأثور قوله . فتعالى عن صغار ، ومات موت الأسود
ضم مقراضه إليه ، ونادى دون ذل الحياة قطع الوريد !

* * *

كان حافظا مولعا بالفخم فى كل شىء ، فى الجمال ، والبطولة والمواهب . وكان يحب أصحاب الفكر وإن كانوا موضع غضب الجماهير أحب قائد الفكر قاسم أمين ، فلما مات رثاه بحرقة ومرارة ، ولكن قاسم أمين يدعو إلى السفور ، والجمهور ضد السفور ، وحافظ يؤثر ألا يقع فريسة لغضب الجمهور . وقد استطاع أن يبكى قاسماً ، ويوفيه حقه ، واستطاع أيضا أن يتفادى إبداء الرأى فى قضية السفور !

قال :

لله درك كنت من رجل لو أمهلتك غوائل الأجل
خلق كأنفاس الرياض إذا أسحرن غب العارض الهطِلِ

وشمائل لو أنها مزجت ... بطبائع الأيام لم تحل

جم المحامد غير متهم ... جم التواضع غير مبتذل

يا دولة الأخلاق زافلة ... من (قاسم) فى أبهج الحلل

كيف انطويت به على عجل ... أكذا تكون مصارع الدول؟

*
* *

يا مرسل الأمثال يضربها ... قد مز بعدك مرسل المثل

يا رائش الآراء صائبة ... يرمى بهن مقاتل الخطل

لله آراء شأوت بها ... فى الخالدين نوابغ الأول

قد كنت أشقانا بنا ، وكذا ... يشقى الأبى بصحبة الوكل

لهفى عليك قضيت مرتجلا ... لم تشك ، لم تستوص ، لم تقل

غل القضاء يد القضاء ، فذا ... يبكى عليك وذاك فى جذل

شغلتك عن دنياك أربعة ... والمرء من دنياه فى شغل :

حق تناصره ، ومفخرة ... تمشى إليها غير منتحل

وحقائق للعلم تنشدها ... ما للحكيم بهن من قبل

وفضيلة أعيت سواك فلم ... تمدد إليه يدا ولم يصل

إن ريت رأيا فى الحجاب ولم ... تعصم ، فتلك مراتب الرسل

الحكم للأيام مرجعه ... فيما رأيت فلم ولا تسل
وكذا طهاة الرأى تتركه ... للدهر ينضجه على مهل
فإذا أصبت فأنت خير فتى ... وضع الدواءَ مواضع العلل
أوْلا ، فحسبك ما شرفت به ... وتركت فى دنياك من عمل

وكان مولعا بالدكتور شبلى شميل ، يعجب به ، ويعتز بصداقته ، وعلى الرغم من إيمان حافظ ، فقد كان يصغى باهتمام إلى آراء شميل المتحررة من العقيدة .

ويموت شميل ، ويندفع حافظ بعاطفته فيرثى شميل ، ويلومه الناس ويسألونه : كيف ترثى ملحدا . ويتناول حافظ كل هذا فى رثائه لشميل ويقول :

سكن الفيلسوف بعد اضطراب ... إن ذاك السكون فصلُ الخطاب
لقى الله ربه فاتركوا المر ... ء لديّانه فسيح الرحاب
حزن العلم يوم مت ولكن ... أمن الدين صيحة المرتاب
كنت تبغى برد اليقين على الأر ... ض وتسعى وراء لب اللباب
فاستريح أيها المجاهد واهدأ ... قد بلغت المراد تحت التراب
وعرفت اليقين وانبلج الحـ ... ـق لعينيك ساطعا كالشهاب

ليت شِعرى ، وقد قضيت حياة ... بين شـــك وحيرةٍ وارتيابِ
هل أتاك اليقـين مِن طرقِ الشـ ... ـك فشك الحكيم بدء الصوابِ
كم سمِعنا مسائِلا قبل (شِبلى) ... داش فى البحثِ طارِقا كل بابِ
أطلق الفـكر فى العـوالم حرا ... مستطيرا يُريغُ هتك الحجـابِ
يقـــرع النجم سائِلا ثم يرتـــ ... ـد إلى الأرضِ باحِثا عن جوابِ
أعجزته من قـــدرةِ الله أسبـا ... ـب طواها مسبب الأسبـابِ
لم يكن ماجِدا ولـكن تصـدى ... لشـــئونِ المهيمن الوهابِ
رام إدراك كنه ما أعجز النـا ... س قديمـا فلم يفز بالطلابِ

*
* *

إيهِ شِبلى ، قد أكثر الناس فِيك الـ ... ـقول حتى تفنَّنُوا فى عتـابى
قيل : ترثى ذاك الذى ينكِر النـو ... ـر ولا يهتدى بهـدى الكتابِ ؟
قلت : كفوا فإنما قمت أرثى ... منه خِلا أمسَى طويل الغياب
أنا والله لا أحابيه فى القـــو ... لِ ، فقد كان صاحِبى لا يحابى
أنا أرثى شمـائلا منه عِندى ... كن أحلى من الشَّهاد المذابِ
كان حر الآراءِ لا يعرِف الحتْـ ... ـل ولا يستبيح غيب الصحابِ
مفضِلا محسِنا على العسر واليسـ ... ـرِ جميع الفؤاد رحب الجنابِ

عاش ما عاش لا يُليق على الأ ... يامِ مالا ولم يلن للصعابِ
كان فى الود موضع الثقة الكـ ... ـبرى وفى العلم موضع الإعجابِ

ويموت الإمام الشيخ محمد عبده فيرثيه حافظ بقصيدة يعبر فيها عن عواطفه ، بصدق وعمق ووضوح . لا يبالى غضب خصوم الإمام وما كان أكثرهم ، يقول :

سلام على الإسلام بعد محمدٍ ... سلام على أيامه النضرات
على الدينِ والدنيا ، على العلم والحجا ... على البر والتقوى ، على الحسنات
لقد كنت أخشى عادى الموت قبله ... فأصبحت أخشى أن تطول حياتى
فوالهفى — والقبر بينى وبينه — ... على نظرةٍ من تلكم النظراتِ
وقفت عليه حاسر الرأس خاشعا ... كأنى حيال القبرِ فى عرفات
لقد جهلوا قدر الإمامِ فأودعوا ... تجاليده فى موحشٍ بفلاة
ولو ضرحوا بالمسجدينِ لأنزلوا ... بخيرِ بقاعِ الأرضِ خير رفاتِ

* * *

تباركت هذا الدين دين محمدٍ ... أيترك فى الدنيا بغيرِ حماة ؟
تباركت هذا عالم الشرقِ قد قضى ... ولانت قناة الدينِ للغمزات
زرعت لنا زرعا فأخرج شطأه ... وبنت ولما نجتنِ الثمراتِ

فواها له ألا يصيب موفقا ... بشارفة والأرض غير موات

مددنا إلى الأعلام بعدك راجنا ... فردت إلى أعطافنا صفرات

وجالت بنا تبغى سواك عيوننا ... فعدن وآثرن العمى شرقات

وآذوك فى ذات الإله وأنكروا ... مكانك حتى سودوا الصفحات

رأيت الأذى فى جانب الله لذة ... ورحت ولم تهمم له بشكاة

لقد كنت فيهم كوكبا فى غياهب ... ومعرفة فى أنفس نكرات

أبنت لنا التنزيل حكما وحكمة ... وفرقت بين النور والظلمات

ووفقت بين الدين والعلم والحجا ... فأطلعت نورا من ثلاث جهات

* * *

وقفت (لهانوتو) و(ريمان) وقفة ... أمدك فيها الروح بالنفحات

وخفت مقام الله فى كل موقف ... تخافك أهل الشك والنزعات

وكم لك فى إغفاءة الفجر يقظة ... نفضت عليها لذة الهجعات

وواليت شطر البيت وجهك خاليا ... تناجى إله البيت فى الخلوات

وكم ليلة عانقت فى جوفها الكرى ... ونبهت فيها صادق العزمات

وأرصدت للباغى على دين أحمد ... شباة يراع ساحر النفثات

إذا مس خد الطرس فاض جبينه بأسطار نورٍ باهرِ اللمعات
كأن قرار الكهرباءِ بشقه يريكَ سناه أيسر اللمسات

* *
*

فياسنة مرت بأعوادِ نعشه لأنت علينا أشأم السنواتِ
حطمت لنا سيفا ، وعطلتِ مبرا وأذويتِ روضا ناضر الزهراتِ
وأطفأتِ نبراسا وأشعلت أنفسا على جمراتِ الحزنِ منطوياتِ
رأى فى لياليك المنجم ما رأى فأنذرنا بالويل والعثرات
ونبأه علم النجوم بحادث تبيت له الأبراج مضطربات
رمى السرطان الليث ، والليث خادر ورب ضعيف نافذ الرميات
فأردى به ختلا فمال إلى الثرى ومالت له الأجرام منحرفات
وشاعت تعازى الشهب باللمح بينها عن النير الهاوى إلى الفلوات
مشى نعشه يختال عجبا بربه ويخطر بين اللمس والقبلات
تكاد الدموع الجاريات تقله وتدفعه الأنفاس مستعرات

*
* *

كان فى عصر حافظ شاعر سد الطريق على حافظ وهو أحمد شوقى وقضت السلطات البريطانية أن يخرج شوقى منفيا من مصر ،

و بعد ما قضى فى المنفى بضع سنوات سمحت له السلطات أن يراسل أصدقاءه فى مصر فأرسل إلى الصحف أبياتا قال فيها :

يا ساكنى مصر إنا لا نزال على عهد الوفاء و إن غبنا مقيمينا
هلا بعثتم لنا من ماء نهركمو شيئا نُبَلُّ به أحشاء صادينا ؟
كل المناهل بعد النيل آسنة ما أبعد النيل إلا عن أمانينا

وانبرى الشعراء يردون على شوقى بكلمات تفيض حبا له ، وعطفا عليه وكان حافظ أحد هؤلاء الشعراء ، وقد بذهم ، وتفوق عليهم ، وليس هذا رأيى ، ولكنه رأى شوقى سمعته منه قبل وفاته ، قال حافظ :

عجبت للنيل يدرى أن بلبله صاد ، ويسقى ربى مصر و يسقينا
والله ما طاب للأصحاب مورده ولا ارتضوا بعدكم من عيشهم لينا
لم تنأ عنه — و إن فارقت شاطئه — وقد نأينا — و إن كنا مقيمينا —

ولقد كان حافظ فى حياته سريع الدمعة ، سريع الابتسامة . وقد امتلأ ديوانه بالدموع ، وخلا من الابتسامات . فليس فى الديوان من الشعر المرح الذى نظمه حافظ ، ونقله الرواة عنه إلا قلة ضئيلة قد تشى بشخصية حافظ المرحة ، ولكنها لا تصورها ولا تدل عليها .

أين خمريات حافظ ، ودعاباته ، وسخرياته ، أين قصائده التى هاجم فيها الملك فؤاد ، وأسرة محمد على ، والحكام الطغاة ؟

إذا كانت ظروف حافظ السياسية والاجتماعية قد منعته من نشر هذا الشعر ، فإن الأمانة الأدبية تقتضينا نحن الذين نحتفل بذكرى حافظ أن نجمع كل تراثه ، حتى تكتمل صورته فى ذهن التاريخ .

كان حافظ إبراهيم شاعرا كبيرا ، وإنسانا كبيرا . امتلأ قلبه بحب بلاده ، والخوف عليها ، وكان فى طليعة الداعين للوطن العربى وقد اتسع صدره للحب والرحمة ، وضاق بالكراهية والقسوة ، كان حافظ يمثل المصرى الفلاح ، فيه ذكاؤه وطيبته . فيه عناده واستسلامه . فيه كثير من المصرى الفلاح الذى بنى الهرم فى رضوخ وانكسار ، وكثير من المصرى الفلاح الذى ثل عرش الملكية ، وأخرج الإنجليز ، وهزم جيوش دول ثلاث فى قوة ، وإصرار ، وعناد .

سلام على حافظ !

نثر حافظ ومترجماته

للدكتور محمد مندور

سيداتى ، سادتى :

عند ما طلب الى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب الحديث عن نثر حافظ ومترجماته أشفقت على نفسى من هذا التكليف ، وخشيت أن أجد نفسى بين أحد أمرين :

الأمر الأول أن آخذ نفسى بما درجت عليه من النظر فى آثار الأدباء نظرة نقدية صارمة فى الحق . وكان العالق بذهنى عن نثر حافظ أنه نثر متكلف لا يعدو رصف الألفاظ الذى حمدنا الله لتخلصنا منه ، وأن ترجماته وبخاصة فى " البؤساء " لم تكن ترجمة أمينة بل تلخيصا أو اقتباس نتف من قصة " هيجو " الزاخرة .

وبذلك يأتى مثل هذا النقد نابيا لا محل له فى مهرجان أدبى لم يعقد لنقد حافظ ابراهيم ، بل عقد اعترافا بفضله على الأدب واللغة ، وترغيبا فى الاستفادة من آثاره الأدبية الخالدة .

وكان الأمر الثانى هو أن أحمل نفسى حملا على أن أجعل كلامى مطابقا لمقتضى الحال ، فأحاول أن أنحل نثر حافظ ومترجماته ماليس فيهما من جمال أو أصالة أو أمانة .

وكنت أقول لنفسى ولماذا لم يكن نصيبى الحديث عن ناحية من نواحى ذلك الفن الرائع الذى نبغ فيه حافظ وعرف به قبل كل شىء وهو الشعر .

ولكننى عند ما عدت الى نثر حافظ أخذ إحساسى بالفن يخف شيئا فشيئا حتى انتهيت بأن آمنت بأننى رابح لا مغبون .

الترجمات العلمية

ولكى أقنعكم بربحى الأكيد سآخذ فى تصفية التراث الذى طاب إلىّ دراسته ، وتقديم الخالد منه لأدباء العرب وشبابهم المتأدبين .

وأنا أبدأ هذه التصفية بالمترجمات غير الأدبية وأهمها :

"الموجز فى علم الاقتصاد" لأستاذ الاقتصاد الفرنسى الشهير بول لروا بوليو .

الذى اشترك فى ترجمته ، أو على الأصح تعريبه حافظ ابراهيم مع الشاعر الكبير خليل مطران فى خمسة أجزاء كل منها فى مئتى صفحة تقريبا ، وقد طبعت فى سنة ١٩١٣ ، وكانت ترجمته لحساب نظارة المعارف العمومية

و بتكليف من وزيرها الشهير، أو ناظرها كما يقولون أحمد حشمت باشا وقد قررت النظارة تدريس هذا الكتاب فى مدارسها .

والذى لاشك فيه أن ترجمة مثل هذا الكتاب فى ذلك العصر كان يعتبر كسبا كبيرا للثقافة والتعليم فى بلادنا، وفتحا جديدا فى وصلنا بعلم كان يعتبر جديدا علينا بأبحاثه ومصطلحاته، وقد أخذ شاعرانا يخوضان بترجمته ميدانا بكرا، ويلتقيان بمشقات كبيرة .

وجميع من رجعنا اليهم من المؤرخين يتفقون على أن خليل مطران قد كان له النصيب الأوفى فى فهم النص الفرنسى ونقل معناه الى العربية وأن حافظا إنما كانت مشاركته فى عملية التعريب والصياغة، ومحاولة العثور على المصطلحات العلمية ونحتها فى عصر كان فيه التزمت اللغوى، ومحاولة تعريب كل اصطلاح حضارى، والنفور من إدماج أى اصطلاح أجنبى فى لغتنا العربية بالغا أقصاه، و إننا لنبتسم اليوم عندما نرى الشاعرين الكبيرين يعربان بعض الاصطلاحات — التى انتهينا منذ سنوات إلى تعريبها بألفاظ سهلة دارجة — بألفاظ ميتة استخرجاها من بطون المعاجم مثل لفظة : — الوهين أو الولى للفظة الفرنسية Patron التى انتهينا الى ترجمتها بعبارة " رب العمل أو صاحبه " ولفظة المسرة للكلمة الفرنسية Secrétariat التى لم يعد أحد يتورع عن نقلها كما هى

الى العربية وهى لفظة " سكرتارية " وإن يكن هناك من يفضل عبارة " الأمانة العامة " " والأمين العام " على عبارتى " السكرتارية العامة " و " السكرتير العام " كما يترجمان اصطلاح Bourse de travail بعبارة مصفق العمل بينما نسميها الآن فى بساطة " ببورصة العمل " بعد أن استعملنا مصطلحات "بورصة القطن " و بورصة الأوراق المالية " واصطلاح Contrat collectif بعبارة " العقد الألبّى مع أننا نترجمها الآن فى بساطة بعبارة " العقد الجماعى " ولكنهما الى جوار ذلك وفقا الى العثور على الكثير من المصطلحات التى كتب لها الرواج والانتشار حتى وقتنا الحاضر مثل مصطلحات "الصناعة الاستخراجية " و " الصناعة التحويلية " وأمثالهما .

وأما الترجمة فى ذاتها فإنها و إن تكن قد خلت من السجع والمحسنات البديعية المسرفة إلا أنها مع ذلك قد احتفظت بطابعها الأدبى، ولم يقبل الشاعران الكبيران تضحية الجزالة فى سبيل الوضوح والسهولة، ولا التصوير البيانى فى سبيل التقرير العلمى المباشر كلما لاحت لها فرصة لمثل هـذا التصوير البيانى، فهما عند الحديث عن " مطاعن العامة على الآلات " مثلا صفحة ١٤٦ جزء/١ يقولان : (ولو سمع فيها قول الكاشحين لبقيت الانسانية خادرة فى وهدتها، ولحرمت أنفس مبتكراتها) ويشعران بالحاجة إلى وضع هامشين لتفسير عبارة (الكاشحين) بأنها (جمع كاشح وهو الذى

يطوى كشحه على العداوة ، والكشح ما بين الخاصرة الى الضلع الخلفى) وعبارة (خادرة) بـ (مسترخية) وما ضرهما لو وضعا فى النص لفظتى (الأعداء) و (مسترخية) بدلا من الكاشحين) و (خادرة) .

وأما عن مادة الكتاب ذاته فهى فى جملتها مادة سطحية تقف عند العموميات ، وقد لا يضيرها ذلك إذا ذكرنا أن الكتاب قد ترجم للمبتدئين فى هذا العلم من طلاب المدارس .

ولكن من البين أن مادة هذا الكتاب قد تخطاها الزمن بتقدم البحث فى علم الاقتصاد ، كما أن هناك مأخذا آخر خطيرا على هذا الكتاب ومؤلفه الفرنسى ، فالأستاذ " بول لروا بوايو " الذى توفى فى عام ١٩١٦ قد كان بلا ريب من كبار أساتذة هذا العلم ، وقد قام بتدريسه سنوات طويلة فى College de France ولكنه كان من أشد رجال هذا العلم تعصبا للاقتصاد الحر ، ومن أشدهم عداوة للحماية الاقتصادية وللمبادىء الاشتراكية مما يبدو معه أن كتابه المذكور لم يعد يتمشى مع السياسة الاقتصادية التى انتهت اليها بلاد كمصر بل ومعظم بلاد العالم ، حيث لم نعد نرى تقريبا أحدا يأخذ بمبدأ الإقتصاد الحر ، ويرفض رفضا مطلقا تدخل الدولة على نحو أو آخر فى حماية الاقتصاد القومى أو توجيهه أو الإشراف عليه . ولسنا ندرى هل فطن المترجمان الفاضلان

ومن خلفهما السيد الوزير أو الناظر إلى هذه السياسة التى يصدر عنها المؤلف فى كتابه أم لا ، وهل قصدوا إلى نشر هذه السياسة والإيمان بها بين تلاميذنا أم لا ، وأكبر الظن أن أكبر همهم كان نشر المعرفة بهذا العلم ومبادئه ، وتقريبها إلى جمهورنا صارفين النظر عن اتجاهه السياسى .

والكتاب فعلا يضم أوليات هذا العلم ويخطط ميادين بحثه ، وهو فى هذه الحدود ، ومع التحفظ السياسى السابق لا يخلو حتى اليوم من فائدة للناشئين .

الترجمات الأدبية

وإذا كان حافظ قد اشترك مع خليل مطران فى ترجمة " الموجز فى الاقتصاد " وكان لمطران فيما يبدو القدح المعلى فى تلك الترجمة المجازية للأصل ، فإنه قد انفرد بتعريب أجزاء ملخصة من قصة ڤيكتور هيجو " البؤساء " التى نشر منها الجزء الأول فى أوائل هذا القرن ، والجزء الثانى بعده بثمانية عشر عاما .

وهو عند اختياره لهذه القصة الضخمة التى تتجاوز الألفى صفحة فى نصها الفرنسى ، والتى تعتبر أضخم من قصة موحدة ، بل أشرطة واسعة متتابعة من الحياة الفرنسية فى القرن التاسع عشر ، نقول : إنه عندما اختار

هذه القصة ليعرب أطرافا منها لم يكن ذلك بتكليف من وزير أو ناظر وإنما ساقته ظروف حياته واستجابت نفسه لموضوعها ومادتها .

ونحن نعلم أن حافظا قد مرت به فترة من حياته حالكة السواد وهى تلك التى تقع بين عامى ١٩٠٣ — ١٩١١ ففى تلك الفترة ذاق حافظ بؤس الحياة ولو أنصفنا لقلنا ألم الجوع والحرمان بعد أن طرد من الجيش على أثر التمرد الذى حدث منه ومن بعض زملائه ، أو الذى اتهم به فى السودان ، وقد خذلهم الخديوى ، وترك الانكليز ينكلون بهم ، وإذا كان حافظ قد وجد أول الأمر فى الإمام محمد عبده عونا على الحياة ، فإن الإمام لم يلبث أن انتقل إلى رحمة الله فى سنة ١٩٠٤ تاركا حافظا يتعى بؤس الحياة وشظف العيش إلى أن أتاح الله له ناظر المعارف المحسن أحمد حشمت باشا الذى ألحقه بدار الكتب المصرية حيث ظل يعمل بها إلى أن استقال فى عهد اسماعيل صدقى الظالم سنة ١٩٣٢ ليموت بعد ذلك بأشهر قليلة .

والظاهر أن صلة حافظ ابراهيم بقصة " البؤساء " إنما تعود إلى هذه الفترة البائسة فى حياته ، بل لقد زعم لى أحد شيوخ الأدب الأحياء أن الأستاذ الإمام محمد عبده هو الذى دله على هذه القصة ، وساعده على فهم نصها الفرنسى بعد أن كان الأستاذ الإمام قد ألم باللغة الفرنسية أثناء وجوده بباريس مع السيد جمال الدين الأفغانى . ومن المؤكد أن حافظا وإن يكن قد ألم

بأطراف من اللغة الفرنسية إلا أن معرفته بها لا أظن كانت من الاتساع والعمق بحيث تمكنه من قراءة نص فرنسي رفيع كنص "البؤساء" لفكتور هيجو ، ولا بد أنه قد استعان بمن يجيد الفرنسية خيرا منه مثل الأستاذ الإمام أو غيره على نحو ما كان الأستاذ مصطفى لطفي المنفلوطي يستعين في نفس الفترة بغيره ممن يجيدون اللغة الفرنسية مثل الدكتور عبد السلام الجندي الذي اعترف لنا بأنه قد قام بترجمة بعض روائع الفرنسية التي صاغها المنفلوطي بأسلوبه العذب قصصا لا تزال نعتبرها بين تراثنا الأدبي الحديث .

وفي المقدمة التي كتبها حافظ للجزء الأول من البؤساء ما يشير إلى حالة البؤس التي كان يعانيها عندما هم بتعريب تلك القصة ، حيث يقول : "هذا كتاب البؤساء وهو خير ما أخرج للناس في هذا العهد ، وضعه صاحبه وهو بائس ، وعربه معربه وهو بائس ، فجاء الأصل والتعريب كالحسناء وخيالها في المرآة . . وضعه ابنة شعراء الغرب وهو في منفاه وعربه كاتب هذه الأسطر وهو في بلواه" ، والكتاب بعد ذلك مهدى من المعرب إلى الأستاذ الإمام بكلمة يستهلها بقوله :

"إنك موئل البائس ، ومرجع اليائس" .

ويحدثنا حافظ ابراهيم عن الجهد الذي بذله في التعريب ، والنهج الذي سلكه فيه ، يقول : "وقد خار الله لي أن أعربه فاستعنته فأعانني ، واستهديته

فهدانى ، وسلخت اثنى عشر هلالا فى تعريب تلك الصفحات التى ترونها اليوم ، وحاولت أن أصل بها تلك الرابطة التى قطعتها يد الترجمة التجارية بيننا وبين أولئك الرجال الذين تجردوا لتعريب أساطير الأولين فوفوها قسطا من الإتقان ، وألبسوها من البهجة لباسا ترضاه اللغة ويرضاه أبناؤها ، ويضرب للترجمات الأدبية التى يراها مثلا بكتاب "كليلة ودمنة" فيقول : أرأيت أيها الناظر فى كتاب كليلة ودمنة ؟ أكان يقوم وأنت تذوق حلو تركيبه ، وتستمرئ لذة أسلوبه ، إن عبد الله بن المقفع قد عربه عن الفارسية لو لم يصل خبر ذلك إليك ؟ فسقيا لتلك الأقلام التى عربت وسطرت فأعجبت ، واها لهذه اللغة التى أصبحت بين أعجمى ينادى بوأدها وعربى يعمل على كيدها .

وإذن فالذى قصد إليه حافظ إبراهيم لم يكن ترجمة للبؤساء ، وإنما تعريبا لأجزاء منها ، وإن أصر هو رحمه الله على اعتبارها ترجمة كترجمة ابن المقفع لكليلة ودمنة . وفى ذلك يروى الأستاذ المازنى حادثة طريفة جرت له مع حافظ ، وكان المازنى مايزال طالبا فى مدرسة المعلمين العليا وقد أوفده أحد أصدقائه إلى حافظ فى أمر قضاه له . ويستطرد المازنى فيقول : "يظهر أن حافظا استصغرنى فى نظره ، فكان يخاطبنى بلفظ (ياشاطر) فساءنى ذلك ، وقلت له قبل أن أنصرف شاكرا : لقد قرأت ترجمتك البؤساء ولا شك أنه كتاب نفيس إذا نظرنا إلى اللغة ، ولكن لاشك أيضا

أنه ليس بترجمة بالمعنى الصحيح وأحرى به أن يسمى تلخيصا ، فغضب حافظ ، وقال لى تعيب البؤساء يا ولد! نقلت وقد سرنى أن أغضبته — دع الولد والبنت فإنك لا تخاطب جرسون المقهى ، وأنا لم أعب البؤساء وإنما عبت الترجمة لا لغتها ، فسكت قليلا وهو يدخن الشيشة ثم قال — أجبلك شيشة ؟ . . وهكذا عاد المرح إلى حافظ بالسرعة التى غضب بها " .

ولا يستطيع أحد أن يوافق الأستاذ المازنى على أن حافظا قد قام بتلخيص قصة البؤساء لهيجو ، فتلك القصة لا يمكن تلخيصها لأنها ليست قصة موحدة ، وإنما هى سلسلة مشاهد الحياة فى فرنسا وما كان فيها من بؤس فى القرن التاسع عشر ولو أنها كانت قصة موحدة لأمكن تلخيصها أو تقديمها إلى قراء العربية فى صورة موحدة ، على نحو مافعل المنفلوطى بعد ذلك فى مسرحية "سيرانو دى برجراك" لأدموند روستان التى قدمها إلينا المنفلوطى فى شكل قصة جميلة عذبة الأسلوب أو قصة "بول وفرجينى أو الفضيلة" وقصة "غادة الكاميليا" بل لقد استعصت البؤساء على أن تلخص فى فيلم سينمائى واحد ، واضطر مخرجوها إلى جمع مشاهدها فى ثلاثة أفلام ، وقد قام أخيرا الأستاذ منير البعلبكى بترجمة البؤساء ترجمة حرفية كاملة ونشرها بدار العلم للملايين ببيروت فى خمسة أجزاء كل جزء منها يقع فى حوالى خمسمائة صفحة من القطع الكبير .

وإنما الذى قام به حافظ إبراهيم هو تعريب وتلخيص لبعض أجزاء تلك القصة الزاخرة ، وقد اتخذ للجزء الأول عنوانا "جان فالجان" وللجزء الثانى عنوان " عاصفة تحت جمجمة " والجزآن يتناولان ما كان لجان فالجان الخارج من السجن من أحداث ومحاولات يائسة ليسترد شرفه فى المجتمع رغم نفسه الخيرة . وأما ماعدا ذلك من قصص ولوحات فلم يعرض له حافظ فى شىء مع أن هذه القصة تضم لوحات لامثيل لقوتها وروعتها ، مثل وصف هيجو لمعركة ووترلو الشهيرة التى انهزم فيها نابليون .

وأما عن أسلوب حافظ فى الترجمة ، فهو أسلوب رصين قوى خلال القصة من أولها إلى آخرها ، وهو وإن لم يلتزم السجع ولم يسرف فى التماس المحسنات البديعية إلا أنه قد حرص الحرص كله على انتقاء ألفاظه وسبك عباراته ، وهذا عمل مضن فى الكتابة فضلا عن الترجمة . فالكاتب الذى يتكلف الصنعة الأدبية فى كتابته يفكر الفكرة أو العاطفة مرتين ، مرة ليدركها ويفهمها ، ومرة ليحتال عليها حتى تسكن إلى العبارة المصنوعة التى يريدها . وكذلك المترجم . وأكبر الظن أن حافظا لو حاول أن يترجم " البؤساء " كلها على هذا النحو لما اتسع لذلك جهده بل ولا اتسع عصره .

ويحدثنا أنطون الجميل صديق حافظ فى مقال له عن الجزء الثانى من البؤساء عن جهد حافظ فى ترجمته واعتزازه بهذه الترجمة ، فيقول " ترجم

حافظ هذا الجزء كما ينظم قصيدة. فنسق عباراته كما ينسق قوافيه ، وتخير مفردات نثره بما اشتهر عنه فى تخيّر مفردات شعره. ولكم لقيته وهو ينشد لى صفحة من البؤساء كما ينشد مقطعا من شعره الجزل . إذا رجعنا إلى حكم حافظ نفسه قد نجده يؤثر بعض صفحات ترجمته على بعض مقاطع ديوانه ، لأن تلك قد كلفته قدر ما كلفته هذه ، ومعزة الشىء كما يقولون بقدر ما يكلف وكذلك قيمته " .

وإذا كان هذا الحرص الشـــديد على تجويد العبارة قد ساق حافظا أحيانا إلى التكلف والاصطناع ، ولم يراع دائما مقتضى الحال حتى نراه يجرى الحوار على لسان الخدم بلغة عويصة متكلفة على النحو الذى ينطبق عليه نقد أحد أشخاص الرواية ذاتها عندما يصف " أولئـــك الذين إذا ذكروا الزوج قالوا البعل ، والزوجة قالوا الحليلة ، والملك قالوا رب التاج والصولجان . . الخ" فإنه من جهة أخرى قد استطاع أحيانا كثيرة أن يلبس تصويره هيجو البيانى ثوبا عربيا جميلا مثل قوله فى وصف الندم " ص ١٧ جزء ٢ " (والفكر كالبحر فمن استطاع أن يرد البحر عن العود إلى شاطئه استطاع أن يرد الفكر عن العود إلى مناطه . وعلة البحر فى ذلك يعرفها الملاح وهى المد والجزر ، وعلة الفكر يعرفها المذنب وهى الندم ، فسبحان من يثير النفس كما يثير البحر المحيط) ، أو قوله فى المرض الذى يسبق الشيخوخة (أف من المرض فإنه يرتجل الشيخوخة ، وإنه لأنجب مطايا الكبر" .

وأيا ما يكون الحكم على هذه الترجمة، فإن (البؤساء) لحافظ ابراهيم تحتفظ بلا ريب بفضل خصائص صياغتها، وروعة أخيلتها ومعانيها وثوبها العربي الجميل بقيمة أدبية خالدة ، وما أظنها ستصبح يوما مجرد وثيقة من وثائق التاريخ الأدبي .

ليالى سطيح والقصة الاجتماعية

وأما العمل الأدبي الذى يستحق أن يفرد له مكان فى تاريخ فنون الأدب النثرى فى عصرنا الحديث فهو بلا ريب كتاب "ليالى سطيح" وذلك لأنه يعتبر من طلائع القصة الاجتماعية ، وهذا النوع من القصص قد كان أسبق إلى الظهور فى أدبنا الحديث من غيره من أنواع القصص لعدة ظروف سياسية واجتماعية وثقافية .

أما الظروف السياسية فتتلخص فى نكبة مصر بزيمة الثورة العرابية واحتلال الإنجليز لبلادنا مما دعا مفكرينا إلى أن يمعنوا النظر فى الآفات الاجتماعية التى كانت تنخر فى حياتنا، وتسبب ضعفنا وتخلفنا وهزيمتنا . فراح كل مفكر يبحث فى ناحية من النواحى ، فقاسم أمين ينشر منذ عام ١٨٩٩ سلسلة من المقالات عن تحرير المرأة وفى نفس الوقت ينشر أحمد فتحى زغلول سلسلة أجزاء من كتاب للكاتب الفرنسى "أدمون دى. ولان" عن "سر تقدم الإنجليز السكسونيين" ثم يجمع كل منهما مقالاته فى كتاب

ويصدر أحمد فتحى زغلول كتابه بمقدمة مسهبة عن تأخر المصريين وأسرار هذا التأخر فيقول : "نحن ضعاف أمام الغرب . . ضعاف فى الزراعة . . ضعاف فى الصناعة . . ضعاف فى التجارة . . ضعاف فى العلم . . ضعاف فى العزيمة . . ضعاف فى الألفة والمودة . . ضعاف فى النخوة والشعور الدينى . . ضعاف فى الجامعة القومية . . ضعاف فى الخيرات . . ضعاف فى طلب الحقوق وأداء الواجبات . . ضعاف فى حفظ ماترك الآباء . . ضعاف فى التحصيل . . ضعاف حتى أصبحنا نرجو كل شىء من الحكومة" .

ويوحى كتاب أحمد فتحى زغلول عن سر تقديم الإنجليز السكسونيين ومقدمته إلى أحد مفكرينا ولعله كان أيضا من رجال القضاء وهو المرحوم محمد عمر بكتابة كتاب مماثل فى منهجه مضاد فى اتجاهه ، وهو كتاب "حاضر المصريين وسر تأخرهم" الذى أصدره عام ١٩٠٢ فى نحو ٣٠٠ صفحة صور فيها أوجه الضعف التى يشكو منها المجتمع المصرى ، وقدم له فتحى زغلول أيضا بمقدمة مركزة تؤيد ماجاء فى الكتاب . وقد قسم المؤلف المجتمع المصرى إلى ثلاث طبقات : غنية ومتوسطة وفقيرة ، وأخذ يبحث فى كل طبقة عن العيوب التى تختص بها ، والعلاج الذى يراه لكل عيب ، ويقول زميلنا الدكتور عبد اللطيف حمزه فى كتابه عن الصحافة والأدب فى مصر: إن المستشرق الفرنسى "هنرى بيريس" هو الذى لفت

النظر إلى هذا الكتاب فى مقال له بالمجلد الحادى عشر من مجلة المكشوف
" العدد ٣٩٢ سنة ١٩٤٥ " .

وأما الظروف الإجتماعية التى دفعت مفكرينا وأدبائنا نحو النقد الإجتماعى فقد تولدت من احتكاك الحضارتين الغربية والشرقية فى بلادنا إبتداء من مطلع القرن ١٩ . وقد ولد هذا الاحتكاك النقد الإجتماعى فى اتجاهين متضاربين متصارعين . ففى ضوء حضارة الغرب وروحها العقلية النقدية أخذ مفكرونا يتنبهون إلى ما كان قد تراكم فى حياتنا من تقاليد وعادات ومعتقدات وخرافات طغت على حياتنا منذ عصور الظلام العثمانى ، والمملوكى كالشعوذة والاعتقاد فى الأولياء والأضرحة ، والزار والحسد وما إلى ذلك من آفات . ومن جهة أخرى أخذت الحضارة الغربية تبهرنا ببريقها وتجذبنا بتفوقها . ولما كان من الأسهل محاكاة القشور دون اللباب والأخذ بالظواهر دون الجواهر ، فقد كان من الطبيعى أن يكون أول ما يتسرب إلينا من حضارة الغرب بعض تلك المظاهر والقشور على حساب كثير من تقاليدنا الدينية والأخلاقية الكريمة السمحة . فانتشرت بدع الأزياء والخمور والقمار والندوات الخليعة مما أثار المحافظين ، ودفعهم الى المغالاة فى محاربة الحضارة الغربية دون تمييز بين مافيها من نافع وضار . حتى رأينا أحد عظمائنا ، وهو المرحوم طلعت حرب يعارض دعوة

قاسم أمين الى تحرير المرأة معارضة عنيفة فى كتابه " تربية المرأة " الذى يرد فيه على كتاب " تحرير المرأة " .

وأما الظروف الثقافية فترجع هى الأخرى إلى اتصالنا بثقافة الغرب وآدابه ، وتنبهنا الى فنون من الأدب لم تعرف أو لم تزدهر فى تراثنا العربى القديم مثل فنى المسرحية والقصة . والذى لاشك فيه أن دعوة أدبائنا ومفكرينا الى الاستفادة من آداب الغرب وفنونهم قد وصلت وأثرت فى الغالبية العظمى من أدبائنا حتى ولو لم يكونوا يعرفون أو يجيدون لغة ، وإذا كنا نعتبر حافظا من شعرائنا التقليديين ، فإن الدعوة الى الأخذ عن الغرب والخروج عن دائرة التقاليد الأدبية التى تحجرت عند العرب قد وصلته بل وأثارته ، واستحوذت على لبه على نحو ما نحسه فى قوله :

آن ياشعر أن تفك قيودا قيدتنا بها دعاة المحال
فارفعوا هذه الكمائم عنا ودعونا نشم ريح الشمال

وريح الشمال التى يحرص حافظ على أن يشمها هى بلا ريب أدب الغرب الذى رأيناه يتجه اليه أيام محنته محاولا أن يجد فيه تعبيرا عن البؤس الذى يشقى به ، ويختار لهذا التعبير تلك القصة الضخمة التى عنوانها يتجاوب مع حالته النفسية وهى قصة البؤساء التى تتتبع هى الأخرى آفات المجتمع وتكشف عنها ، وتثير ضدها النفوس .

كل هـــذه الظروف مجتمعة كانت خليقة بأن تدفع الأدباء كما دفعت جمهرة المفكرين نحو النقد الاجتماعى ، وإذا كان هذا النقد قد وجد مجالا أول الأمر فى مقالات الصحف ومجالاتها الإصلاحية ، وبخاصة فى صحيفتى المؤيد واللواء ، فإنه ابتدأ يتخذ أيضا القصة صـورة أدبية له . فرأينا محمد المويلحى ينشر تباعا فى صحيفة مصباح الشرق التى أسسها والده ابراهيم المويلحى فى سنة ١٨٩٨ قصته الاجتماعية المعروفة باسم حديث عيسى بن هشام وعيسى بن هشام هو محمد المويلحى ذاته الذى يقص المؤلف على لسانه كيف إنه رأى فى المنـام كأنه فى صحراء الإمام يمشى بين القبور والرجام فى ليلة زهراء قمراء يستر بياضها نجوم الخضراء ... الخ حتى انتهى إلى قبر نهض منـه أحد باشوات عصر محمد على ، وصحب عيسى فى رحلة طويلة خلال العاصمة يقارن بين ما آلت إليه الأخلاق والعادات ونظم الحياة ، وبين ما كانت عليه فى عصر محمد على ، وينتقد بيئات المجتمع المصرى المختلفة بروح محافظة تحن إلى القديم فى أغلب الأمر .

وإذا كان حافظ قد تأثر فى شعره تأثرا أكيدا واضحا بمحمود سامى البارودى فإنه قد تأثر بلا ريب بمحمد المويلحى "وحديث عيسى بن هشام" فى نثره وفى "ليـالى سطيح" ، وكل ذلك فضلا عن تأثر الجميع بشعراء العرب وناثريهم القدماء أمثال الصاحب بن عباد ، والحريرى والهمذانى وابن زيدون .

ومع ذلك فأنا أخالف كل المخالفة من يزعمون أن "ليالى سطيح" هى مجرد محاكاة "لحديث عيسى بن هشام" وإن تكن هذه المحاكاة ممكنة تاريخيا . لأنه وإن يكن "حديث عيسى بن هشام" قد نشر فى كتاب سنة ١٩٠٧ بينما نشر كتاب "ليالى سطيح" سنة ١٩٠٦ إلا أن حافظ إبراهيم قد طالع بلا ريب أو استطاع أن يطالع حديث عيسى بن هشام فى المقالات المسلسلة بجريدة "مصباح الشرق" بل لقد ضمن حافظ إبراهيم "ليالى سطيح" فصلا كاملا من حديث "عيسى بن هشام" وذلك ابتداء من ص ٤٧ من "ليالى سطيح" حيث نطالع وصف المويلحى لقصر إسماعيل ، وينبهنا حافظ نفسه إلى أن هذا الوصف للمويلحى حيث يقدم له بقوله : "هذا قصر إسماعيل" الذى يقول فى وصفه صاحب "عيسى بن هشام" ثم يورد بعد ذلك الوصف برمته . ولكن هذا التضمين ليس هو الوحيد فى "ليالى سطيح" التى ضمنها حافظ مقالا بأكمله لصاحب المؤيد بعنوان "السياسة الضعيفة والعنيفة" عن مأساة دنشواى وضعف الإنجليز أمام الوطنية المصرية ، وانقلاب هذا الضعف إلى عنف ، كما ضمنها فى ص ١٣٦ وما بعدها مقالا آخر للمويلحى الكبير أى لإبراهيم المويلحى عن فساد المجتمع ، ذلك الفساد الذى دفع الإمام محمد عبده إلى ما يشبه اليأس من مجتمعنا المصرى حينئذ فقال قولته المشهورة "هذه الأمة حياتها فى موتها" .

"ليالى سطيح" ليست إذن مجرد محاكاة "حديث عيسى بن هشام" كما أنها ليست مجرد رصف للألفاظ ، و إظهار للمهارة اللغوية ، وحفظ مفردات اللغة ووسائل تعبيرها العتيقة ، بل هى أقرب ما تكون الى القصة الاجتماعية ، أو إلى الشريط الاجتماعى الذى يستعرض فيه حافظ مشكلة من مشاكل عصره فى كل ليلة من تلك الليالى . وقد اختلطت هذه المشاكل أحيانا كثيرة بمشاكل حافظ الشخصية ومآسى حياته ومواضع اهتمامه . واتضحت فى هـــذا الشريط آراء حافظ واتجاهاته بل وخصائص روحه الشعرية حينا ، والفكهة الساخرة حينا آخر .

وهيكل القصة العام يقوم على نزهات كان يخرج إليها الكاتب كل مساء منفردا أو مع من يلتقى من الصحاب أو عابرى السبيل إلى مكان على ضفاف النيل يلتقى فيه سطيح — ذلك العراف العربى القديم — ويدور بين الكاتب ومن معه و بين سطيح حوار حول إحدى المشكلات التى يحسمها سطيح بثاقب بصره ، فتلك مشكلة الجفوة التى طرأت بين المصريين و إخواننا السوريين واللبنانيين النازحين إلى مصر حينا ، وتلك مشكلة المجد الأدبى وحظ شوقى منه ، وظروف هذا الحظ حينا آخر ، وتلك حركة التمرد فى السودان ودسائس الانجليز فيه ، ونكبة حافظ ورفاقه من الضباط والجند فى ذلك التمرد حينا ثالثا ، وذلك رأى حافظ فيما انحدرت

إليه الصحافة من نهش الأعراض بسبب الحرية القومية التي منحها لها عن قصد سئ كرومر فى فترة من الزمن . ثم لوحات عديدة عن الحياة فى الأسواق والمتاجر والملاهى ، ونقد لعدد من مظاهر تلك الحياة ، وموازنة بين فوضى الحكم التركى وفساده ، وحكم الأسرة العلوية الطاغى ومظاهر الحضارة والتنظيم المزيفين فى عهد الاحتلال البريطانى ، وهو نقد يخيل إلينا أن حافظا قد استطاع تركيزه على أقوى نحو فى أبياته التى ساقها فى هذا الموضع من الكتاب وهى قوله مخاطبا كرومر :

لقد كان فينا الحكم فوضى فهذبت ... حواشيه حتى بات ظلما منظما

تمن علينا اليوم أن أخصب الثرى ... وأن أصبح المصرى حرا منعما

أعد عهد إسماعيل جلدا وسخرة ... فإنى رأيت المن أنكى وآلما

عملتم على عز الجماد وذلنا ... فأغليتم طينا وأرخصتم دما

ونستطيع أن نضرب مثلا للوحاته الفنية الدقيقة بوصفه لأحد التجار فى السوق واحتياله على الريفيين حيث يقول (وكان كيسهم إذا ظفر بقدم من أقدام الريف حط عليه بأنواع الدهاء، ثم وافقه على أن يطرفه بأنفس ماعنده حتى يثلج الرجل ، إلى قوله : فإذا علم أنه سكن إليه بهره بطائفة من ألفاظ الثناء قد خزنها فى رأسه وادخرها لوقتها، فلا يكاد المسكين يفيق من نشوة الفرح لما سمع من الإطراء حتى يعاجله الخبيث بتعليق سلة

فى عنقه مشفوعة بأخرى فوق رأسه ، معززة بثالثة تحت إبطه فلا يبرح الحانوت حتى تبرح الدراهم مخبأها ، فيخرج وقد انتفخت أوداجه بكثرة هذا النفاق ، وهبط كيسه من فرط ذلك الإنفاق .

ومن تصويره البيانى الساخر قوله " وقف شريكان شرقى وغربى أمام المرآة وفى يد الغربى قطعة من الذهب ، فقال شريكه الشرقى وقد تلطف: ألا تعطينى قسمى من تلك التى بيدك . . فقال الغربى : أما وقد أردت القسمة ، فاعلم أن التى بيدى هى لى ، وتلك التى تراها فى المرآة هى قسمك (نصيبك). وقد ساق هذه الصورة البيانية الساخرة ليوضح حقيقة اشتراك المصريين فى حكم السودان .

ونحن كما قلنا لانعدم فى ليالى سطيح العثور على قسمات من تلك الروح الفكاهية اللطيفة التى اشتهر بها حافظ فى حياته الخاصة وفى مجالس الأدب وذلك مثل تعريفه رفيقه بقصر شادهاه وصاحب هذا القصر حيث يقول : إنه قصر لغنى همه الجمع وشيمته المنع فهو لا يخشى المعرة ولايعرف سبيل المبرة ، وقد بلغ من حرصه على الدانق والحبة أنه اذا أغلس استصبح فى داره بالنجوم لذلك لاترى فى فنائها قنديلا ولا يعرف الطارق إلى طريقها سبيلا) .

وتصل به روح الدعابة الساخرة قمتها عندما يضيف إلى ماسبق من وصف هذا البخيل قول ابن الرومى :

فلو يستطيع انتقتيره تنفس من منخر واحد

وفى الكتاب فوق ذلك كثير من الصور البيانية التى أحسبها مبتكرة أصيلة مثل وصفه لانقشاع الظلمة فى بطء بقوله :

وإذا الظلمة تنجلى عن أطراف السماء انجلاء الخضاب عن القذال الأشيب " .

وفى الكتاب فوق كل ذلك فقرات كثيرة أشبه ما تكون بالاعترافات الشخصية ، والتعبير عن أشواق الروح التى عاناها حافظ رحمه الله . ومن أخص تلك الأشواق التطلع إلى الأمن والاستقرار ، والتخلص من الخوف والقلق وذل الحاجة مثل قوله لمجاوره : " أنت تعلم أنه ما من الله على خلقه بنعمة هى أولى بالشكر وأحق بالذكر من نعمة الأمن قال تعالى معددا آلاءه على قريش (فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) فجعله سبحانه وتعالى نعمته الكبرى ومنته العظمى ، فمن بات منا آمنا فى سربه كان حقيقا أن لايغفل طرفة عين عن الشكر " .

هذه هى ليالى سطيح التى يظنها البعض أحيانا محاكاة عظيمة لحديث عيسى بن هشام ، ويراها آخرون مجرد إنشاء لغوى خال من كل مادة فكرية أو عاطفية أصيلة مع أنها فى الحقيقة تقف فى صف طلائع فن أدبى رفيع

هو فن القصة الاجتماعية ، ومع أننا لا نزال نجد فى مطالعتها لذة عقلية وعاطفية وجمالية لاشك فيها .

وإذا كان هناك ما يبدو مأخذا على ليالى سطيح فهو التزمت فى اختيار الألفاظ ، والإسراف فى الحرص على الجزالة ، وتلك مشكلة قل من استطاع التخلص منها من جيل حافظ فن الأدباء التقليديين ، بالرغم من أن الشعر كان البارودى قد استطاع أن يخلصه بقوة قاهرة من الزخارف اللفظية السقيمة .

وإنه لمن الطريف أن نلاحظ أن حافظا الذى دعا الى التجديد فى الشعر وتنسم ريح الشمال ، دعوة نظرية لم يستطع أن يحققها عملا فى شعره بسبب وطأة التقاليد الأدبية ، وصعوبة التخلص منها فى بيئة كانت المحافظة الأدبية لاتزال مسيطرة عليها — من الطريف أن نلاحظ أن حافظا هذا قد فطن أيضا إلى مشكلة اللغة وضرورة العمل على المقاربة بين لغة الحديث ولغة الكتابة ، وقد دعا هذه الدعوة فى ليالى سطيح ذاتها حيث نراه يستعرض أسرار مجد دول الغرب فيقول : انظر فى تاريخ دول الغرب وأمعن قليلا فى البحث عن أسرار مجدها تجد سر ارتقائها فى تضافر كتابها على بث روح التأثير فى نفوس العامة بما يزخرون لهم من الأحاديث ، وقد ساعدهم على ذلك أن الناس هنالك يكتبون باللسان الذى به يتكلمون ، فتتسرب إلى نفوسهم معانى الشاعر ، وتمتزج بأرواحهم روح الكاتب وإن كانوا لايشعرون .

وأما العرب فإنه يرى أنّ " أصل البلاء الذى استعصى معه الدواء عندهم أن لهم لسانين قد تناكرا حتى تنافرا ، اختصوا أولها بالكلام وجعلوا الثانى من نصيب الأقلام ، فمنع اعوجاج هذا من استقامة ذلك ودفع حاملهما فى سوء الخلط والارتباك ، فكم ترددت بينهما حيرة الشاعر وأشفقت من العثار براعة الناثر . إذا أرضى الشاعر لسان الكلام أغضب لسان الأقلام ، و إذا نزع الكاتب إلى محاسنة العامة جرّه ذلك إلى مخاشنة الحماة " .

وقد كان نصيب هذه الدعوة من حافظ نفسه هو نفس النصيب الذى صادفته دعوته إلى التجديد فى الشعر وتنسم " ريح الشمال " فهو لم يستطع فى نثره أن يعمل شيئا للتقريب بين لغة الكلام ولغة الاقلام ، و إنما الذى استطاع ذلك أديب كبير آخر يعتبر من رواد القصة فى مصر ، وهو المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل الذى كتب فى ١٩١٠ وهو لا يزال طالبا فى فرنسا قصته " زينب " ، ونشرها فصولا " بالجريدة " عام ١٩١٤ بعد عودته إلى مصر ، ففى هذه القصة تقترب لأول مرة لغة الأدب من لغة الحديث المألوفة عند المصريين ، فنرى هيكل يقول عن فتاته : إنها " فردت ذراعيها " بدلا من " بسطت ذراعيها " كما يقول " إن العائلة جلست جميعا حول المشنة ، وأكل كل منهم رغيفا بحصوة ملح " ويصف

إحدى الحالات بأنها " أغلت من سابقتها " وكلمة أغلت بمعنى أقسى أو أشد مأخوذة من لفظة شائعة بين زراع الريف ، وهى لفظة الغلت أى الحصى الذى يختلط بالقمح فيسىء اليه .

سيداتى سادتى :

هذه أطراف من المجهود الأدبى الناجح الذى بذله شاعرنا الشعبى الكبير حافظ ابراهيم فى مجال الترجمة ، علمية كانت ، أم أدبية ، ثم فى مجال الترجمة علمية كانت أم أدبية ، ثم فى مجال القصة بنوع خاص ، وهو ذلك الفن الذى يعتبر حافظ والمويلحى والدكتور هيكل من رواده ، وبخاصة القصة الاجتماعية فى مجتمع أخذ يتساقط العيوب الاجتماعية ، ويسعى إلى تشخيصها والتماس العلاج لها . لم يقنع حافظ وزملاؤه بالمقالات الصحفية فى هذه النهضة التى تعتبر نقطة البدء فيها الشعور بالنقص والوعى به ودقة تشخيصه ، فأخذوا يدلون فى هذا المعترك الحيوى بدلوهم الأدبى الذى اتخذ صورة من أنجح صور الأدب الحديث وأكثرها رواجا فى العالم كله ، وهى القصة ولذلك يحلو لنا أن نعترف بفضل قيادتهم ، وألا نطالبهم بالكمال الفنى فى فن كان لايزال عند خطوته الأولى فى بلادنا .

حافظ وجهاد الأحرار في ليبيا

للأستاذ احمد راغب الجصائري

لا شك أن الدارس لشعر حافظ بوجه عام يتبين جليا أن هذا البلبل الصداح قد تناول جل أغراض الشعر، وحلق في كثير من آفاقه، وصور مختلف المعاني فأبدع التصوير، وعبر عن أماني الشعوب وآلامها فكان صادق التعبير، وقد أعطى لوطنه وقومه الكثير من روائع تغريده وبدائع قصيده، فكان إنتاجه الشعري مرآة صادقة لحقيقة نفسيته واتجاه تفكيره وترجمانا لما يعتمل في صدره من أحاسيس وطنية مشبوبة، ومشاعر عربية سامية، فهو قد بذل في سبيل أمته أغلى ما تزخر به شخصيته القوية الحساسة من حيوية دافقة، وطاقة ذهنية مبدعة، ومع ذلك لم يأخذ من هذه الأمة شيئا يستحق الذكر، ولم ينل من تقديرها الأدبي والمادي ما هو جدير بصورة كفاحه الخالدة، ولكنه لم ينقم على أحد، ولم يتذمر من حظه العاثر ولم يتسرب اليأس إلى قلبه الكبير، ولم يرج الثواب على نضاله الدائب من أجل وطنه وفي سبيل قوميته العربية الصاعدة التي وهبها بنات شعره هبة الكريم الذي لا يمن بما يعطي، ولا يشعر بأنه منعم متفضل لأنه كان يحس إحساسا عميقا بأن هذه الآلام التي ينفثها من أعماقه في أنغام حزينة

وتلك الآمال المشرقة التى يصورها فى إطارات وردية لامعة، ويبث هذه وتلك بين الجماهير الضائعة فى هذا الشرق العربى الكبير إنما هى قطعة من كيانه، وجزء حساس من ذات نفسه، وحقيقة كامنة فى أصل وجوده.

إذاً فهو قد عاش حياته الشعرية يحس هذا الإحساس، ويشعر هذا الشعور لا يبتغى المثوبة والجزاء لأنه لا يخدم أغراضا خاصة، ولا ينشد أهدافا معينة، وإنما يخدم القضية الكبرى قضية العرب أجمعين فى كل مكان، ويصرخ فى النائمين منهم أن يثبوا وثبة الأباة الأشاوس.

وفى رأيى أن من أقوى الأسباب التى جعلت حافظا يمتح أكثر شعره من نبع قومى وإنسانى، ويوطن نفسه لحمل رسالة العروبة والشرق هو عمق إيمانه بأمجاد العرب فى ماضيهم الساطع، وعظيم إكباره للرسالة الإنسانية الخالدة التى حملوا مشاعلها فى عهود الظلام، ثم ثقته الكبيرة بإمكانية بعث تلك الأمجاد، وإعادة ذلك البناء الشامخ من جديد. إذ أن عرب اليوم هم سلائل أولئك القادة الموجهين والبناة المشيدين، فطبيعى أن يرثوا عنهم كل صفاتهم ومميزاتهم، وتلك الروح الخلاقة التى لا تعرف الاستكانة، وتلك العقول الجبارة التى تشع وتضىء وتهدى، وتلك العزائم الفولاذية القوية التى لا يعرف الفشل إليها سبيلا، وبالتالى تلك النفوس الطامحة أبدا والتى لا تؤمن بالهزيمة ولا تنظر إلى أسفل. يضاف إلى هذا كله ثقافته الواسعة بعلوم اللغة العربية وآدابها، وإحساسه بما يكمن فيها من سمو وجمال

وما تمتاز به من مرونة وثروة واتساع، ثم شعوره بالواقع المظلم المؤلم الذى تعيشه أمته إذ ذاك. كل هذه العوامل وغيرها تفاعلت فى نفسه الحساسة المرهفة، فلونت معظم شعره بهذا اللون الذى يكاد يتميز به على معاصريه من الشعراء.

ولعل تمجيد حافظ لبطولة المجاهدين الأحرار من أبناء ليبيا ضد المستعمرين الإيطاليين، وتنديده بوحشية الغاصبين فى هذا الجزء من المحيط العربى، ومواساته للأرامل والشيوخ، وبكاءه مع اليتامى والمفجوعين، لعل كل هذا مظهر مادى واضح المعالم لاتجاه شعره وأهدافه العربية النبيلة.

ولنستمع إليه فى مطلع قصيدته "حرب طرابلس" التى يكشف فيها عن مطمع الغرب الذى تجرد عن قناعه وبدا وحشا ضاريا، ويحذر الشرق من الإمعان فى سباته الثقيل الطويل، ويحمل الشمس آخر تحياته لجميع سكان الشرق، ويطلب إليها أن تشهد بأننا فى ميدان الشرف والكرامة نستعذب الموت، ونسقط فى سبيل الحق كما يسقط الأبطال:

مطمع ألقى عن الغرب اللثاما ... فاستفق يا شرق واحذر أن تناما

واحملى أيتها الشمس إلى ... كل من يسكن فى الشرق السلاما

واشهدى يوم التنادى أننا ... فى سبيل الحق قد متنا كراما

مادت الأرض بنا حين انتشت ... من دم القتلى حلالا وحراما

عجز الطليان عن أبطالنا فأعلوا من ذرارينا الحساما
كبلوهم قتلوهم مثّلوا بذوات الخدر طاحوا باليتامى
ذبحوا الأشياخ والزمنى ولم يرحموا طفلا ولم يبقوا غلاما
أحرقوا الدور استحلوا كلما حرمت (لاهاى) فى العهد احتراما

ثم هو يندفع فى ثورة وحماس مصورا بطولة المكافحين الليبيين وقوة بطشهم بأعدائهم، ويشيد بالانتصارات الباهرة التى أحرزها الوطنيون رغم قلة تعدادهم وعتادهم، ويسخر بالغزاة ويستعرض هزائمهم واعتصامهم بالشواطىء جبنا وإحجاما فى أسلوب تهكمى لاذع تصدر منه هذه المعانى التى تشعل الحماسة فى الصدور، وتبعث روحا قوية وثابة بين الصفوف وكأنه فرد من المجاهدين يحمل بندقيته ويخوض غمار المعركة فيعيش نفس الظروف الماسية التى يعيشونها، ويصلى نار الحرب التى يصلونها يأكل التمر الردئ الذى يأكلون، ويشرب الماء الآسن الذى يشربون ويتأثر بهجير الصيف وزمهرير الشتاء كما يتأثرون، وينام على الرمال مثلهم ويسهر الليالى الطوال شاكيا سلاحه إلى جانبهم. أجل كان يحس فى أعماقه أنه يعيش هذه الحياة ويضطرب داخل محيطها المتأجج بألسنة اللهب، كان يحس ذلك لأنه عربى وهؤلاء المجاهدون من أحرار ليبيا عرب، فهم إذا إخوته، كلهم أغصان من دوحة واحدة، وخلايا حية تتفاعل فى جسم واحد

وطبيعى أن تبهجه أفراحهم وتزلزل كيانه محنهم وآلامهم، فينشد هذا النشيد القوى المعبر :

فقرأنادا سطـــورا من دم ... أقسمت تلتهم الشرق التهاما
أطلقوا الأسطول فى البحر كما ... يطلق الزاجل فى الجـــو الحماما
قضى غير بعـــيد واثنى ... يحمـــل الأنباء شؤما وانهزاما
قـــد ملأنا البر من أشلائهم ... فدعوهم يملأوا الدنيا كلاما
أعلنـــوا الحرب وأضمرنا لهم ... أينما حلوا هلاكا واختراما
حاتم الطليان قـــد قلدتنا ... منـــة نذكرها عاما فعاما
أنت أهديت إلينـــا عـــدة ... ولباسا وشـــرابا وطعاما
وســـلاحا كان فى أيديكم ... ذا كلال فغـــدا يفرى العظاما
ما لهم والنصر من عاداتهم ... لزموا الساحل خـــوفا واعتصاما

وكأن حافظا يستشف حجب الغيب، و يسبر أغوار المستقبل حين يتنبأ بثورة إفريقيا كلها على الاستعمار كأنما كان يتطلع من نافذة الزمن إلى ثورة مراكش، وثورة الجزائر، وثورة تونس، وثورة مصر، يرى ثورة هذه الشعوب كلها على الاستعمار من وراء الدخان الكثيف الذى تحدثه إذ ذاك نار الثورة الليبية المسلحة ضد الإيطاليين، ولقد صدقت نبوءته بعد أربعين عاما.

فاستيقظت أفريقيا هذه اليقظة الكبرى، فاستقلت مصر، واستقل السودان واستقلت ليبيا، واستقلت تونس، واستقلت مراكش، وكلنا إيمان بأن فجر الحرية فى آفاق الجزائر العربية المناضلة سينبلج قريبا تجرف أضواؤه الغامرة ظلمات الاستعمار فتتلاشى إلى الأبد، كلنا إيمان فى أن يرتفع علم الاستقلال وشيكا رمزا للدولة المجاهدة فى الجزائر الحمراء مهد الأبطال ومهبط الشهداء، وبذلك تصدق نبوءة حافظ فى الدولة العربية الثانية عشرة وتبزغ فى الأفق العربى الكبير هلال جديد، ولنستمع إلى كل هذه المعانى القوية وهذه المشاعر العربية الطافحة، نستمع إليها فى هذه الأبيات من قصيدته التى بين أيدينا :

إيه يا فيزوف نم عنهم فقد ... نفضت افريقيا عنها المناما

فهى بركان لهم سخره ... مالك الملك جزاء وانتقاما

لو درروا ما خبأ الشرق لهم ... آثروا فيزوف واختاروا المقاما

تلك عقبى أمة غادرة ... تنكث العهد ولا ترعى الذماما

تلك عقبى أمر جبار طغى ... أو تعالى ، أو عن الحق تعامى

لو درت روما ما قد نابها ... فى طرابلس أبت إلا انقساما

ويعود حافظ فى ختام هذه القصيدة، إلى أمم الشرق مجتمعة فى الشرق العربى المحبب إلى نفسه يطمئنها على إشراق مستقبلها ، ويوصيها بأن لا تستسلم

لسلطان اليأس الذى يقتل الآمال ويثبط الهمم، لأن حظها قد صحا من إغفائه ولأن قلوب أبنائها تنزع إلى المجد ولا ترضى الهوان :

فاطمئنى أمم الشرق ولا تقنطى اليوم فإن المجد قاما

إن فى أضلاعنا أفئدة تعشق المجد وتأبى أن تضاما

وأخيرا يسرنى أن أحيي هذا العيد الفضى الذى سيظل لامعا فى آفاق الخلود، وأحيي بإخلاص وحرارة روح حافظ فى عليائها، تلك الروح المؤمنة الكبيرة المتسامية التى أفاضت على الشرق من نبعها العذب آيات من الشعر بينات، وروائع من الأدب خالدات، ويسرنى أيضا أن أوجه شكرى مجددا إلى القوامين على هذا الحفل، والذين ساهموا فيه من أشقائنا أعضاء الوفود العربية .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،